الرعاية

للأب غريغوريوس (الكبير)

مع مقدمة عن سيرة الأب غريغوريوس (الكبير) وأفكاره وكتاباته

الجزءان الأول والثاني

ترجمة

مجدي فهيم حنا **جورج فهمي حنا**

كنيسة الشهيد مار جرجس باسبورتنج
الإسكندرية

Pastoral Care

By

Gregory the Great

[١st published in ٥٩١ AD in Latin]

كتاب: الرعاية (الجزءان الأول والثاني)
المؤلف: البابا غريغوريوس (الكبير)
المعربان: مجدي فهيم حنا وجورج فهمي حنا
الطبعة الأولي: ١٩٦٠ م
الطبعة الثانية: ٢٠٠٣ م
الناشر: كنيسة مار جرجس باسبورتنج – الإسكندرية
رقم الإيداع

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مقدمة الكنيسة

يبحث هذا الكتاب في موضوع يهم الكنيسة المقدسة في كل الأجيال، خاصة في جيلنا هذا. فموضوع الرعاية بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية هو موضوع حيوي لأنها كنيسة أبوية. فعندما تضعف الرعاية وتفتر الأبوة تعاني الكنيسة من الضعف والركود.

ولهذا الكتاب قيمة تاريخية إذ كان يُسلم للأساقفة في أوروبا عند رسامتهم أمام المذبح مع الإنجيل

المقدس وقوانين الآباء الرسل. ومما يضيف إلى قيمته التاريخية أن غريغوريوس الكبير استقى موضوعه من العظة الثانية التي كتبها القديس غريغوريوس النزينزي عن الرعاية في سنة ٣٦٢ م واقتبس الكثير منها. وقد أوردنا مثلاً لهذا في الفصل السادس من الجزء الأول. وربما إستعان المؤلف بكتاب "الكهنوت" للقديس يوحنا ذهبي الفم الذي كتب في سنة ٣٨٢ م، إلا أنه ليس لدينا دليل قاطع على ذلك.

بقي أن تعرف أيها القارئ العزيز أن الكتاب مكون من أربعة أبواب، تم بعون الله ترجمة البابين الأولين منهم عن النص الوارد في مجموعة "**الكتاب المسيحيين الأولين – ترجمة كتابات الآباء**": "Ancient Christian Writers – The Works of the Fathers in Translation"، The Newman Press، Longmans, London. بعد ما قورن بالنص الوارد في مجموعة "**آباء نيقية وما بعدها**":

"Nicene & Post-Nicene Fathers, ٢nd Series, Vol. XII.

نشكر **الأخ إبراهيم خلف سيداروس** لمراجعة الكتاب لغويًا.

نرجو من ربنا يسوع، الراعي الأعظم، أن يأتي الكتاب بالثمر المطلوب لخدمة الكنيسة الجامعة رعاة ورعية، له المجد، آمين.

الكنيسة

الفهرست

مقدمة الكنيسة	٩
سيرة الأب غريغوريوس (الكبير)	١٠
البابا غريغوريوس والأسقفية الجامعة	١٧
أفكاره	٢١
كتاباته	٢٧

الجزء الأول: مسئولية الراعي

مقدمة المؤلف	٣٢
الفصل الأول	٣٣
الفصل الثاني	٣٥
الفصل الثالث	٣٧
الفصل الرابع	٣٩
الفصل الخامس	٤١
الفصل السادس	٤٣
الفصل السابع	٤٤
الفصل الثامن	٤٦
الفصل التاسع	٤٨
الفصل العاشر	٥٠
الفصل الحادي عشر	٥١

الجزء الثاني: حياة الراعي

الفصل الأول	٥٦
الفصل الثاني	٥٧
الفصل الثالث	٥٩
الفصل الرابع	٦٢
الفصل الخامس	٦٥
الفصل السادس	٦٨
الفصل السابع	٧٤
الفصل الثامن	٧٨
الفصل التاسع	٨٠
الفصل العاشر	٨١
الفصل الحادي عشر	٨٦

سيرة الأب غريغوريوس (الكبير)
وأفكاره وكتاباته

القمص تادرس يعقوب ملطي

سيرة البابا غريغوريوس (الكبير)

أسقف روما (٥٩٠ – ٦٠٤ م)

يعتبره بعض الدارسين آخر الآباء اللاتين، وهمزة الوصل بين الكنيسة الأولى والكنيسة في العصر الوسيط المسيحي اليوناني/روماني والروماني/الألماني بأوربا.

في وسط اهتماماته الرعوية الروحية الفائقة، والتزاماته بالنسبة لمواطنيه لم يكن ينشغل عن خلاص نفسه وحياته التقوية الشخصية.

شخصية روحية رائعة، وأحد كبار معلمي الكنيسة الغربية (بعد مجمع خلقيدون)، تتسم كتاباته بالفكر الإنجيلي الحي مع العمق الروحي الجذاب، كثيرًا ما يميل إلى التفسير الرمزي للكتاب المقدس الذي وضعت مدرسة الإسكندرية نظامه.

لا نعرف إلا القليل عن سيرته، أغلبها مقتبسة من رسالته التمهيدية لعمله المشهور الخاص بتفسير سفر أيوب *Magna Moralia in Job*، وبعض الملاحظات الواردة في رسائله وأعماله الأخرى. ليس لدينا عمل خاص بسيرته سجله أحد معاصريه، فيما عدا عمل منسوب لراهب من Whitby، نقلاً عن تقليدٍ شفاهيٍ يرجع إلى أشخاص يعرفون غريغوريوس معرفة شخصية[١].

قيل أن جد جد والده هو فيلكس الثاني Felix II (III) أسقف روما (٤٨٣–٤٩٢)[٢]، كما يمت بقرابة من جهة والده إلى أنيكيتوس Anicetus I أو أجابتوس الأول Agapetus I (٥٣٥–٥٣٦).

أسرة أرستقراطية

ولد غريغوريوس حوالي سنة ٥٤٠ م في روما من أسرة أرستقراطية متدينة، وكان والده جورديانوس Gordianus أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وربما كان له مركز كنسي معين. أشار غريغوريوس إلى والدته مرة واحدة، وذكر الراهب كاتب سيرته اسمها وهو سلفيا Selvia. له أخ وثلاث أخوات عشقن حياة البتولية، تارسيلا Tarsilla وأميليانا Amiliana عُرفتا بحياتهما النسكية وحياة الصلاة، أما جورديانا Gordiana فللأسف تركت البتولية وتزوجت المسئول عن تدبير ممتلكاتها.

ثقافته

ربما كان تعليم غريغوريوس أفضل تعليم ممكن في روما في القرن السادس. نشأ ميالاً للتقوى، نبغ في المنطق والبلاغة والنحو، ودرس القانون، وفي عام ٥٧٣ اختاره الإمبراطور قاضيًا للقضاة urban prefect في روما، حيث تجلت مبادئه الدينية عمليًا. خلفه أخوه بالاتينوس Palatinus، وكان آخر من نال هذه الوظيفة لمدة أكثر من قرن، إذ عادت فظهرت مرة أخرى عام ٧٧٢ م.

مع تعليمه الكلاسيكي قوي ارتبط بالفكر الخاص بآباء البرية.

كتاباته أشبه بموسوعة للخبرة الروحية على مستوى متسع، وهي حصيفة، وعملية إلى حد كبير.

رهبنته

بعد فترة قصيرة توفى والده، فباع باتفاقٍ مع والدته التي اختارت الحياة النسكية بعد ترملها وأيضًا إخوته

---

[١] *Everett Ferguson: Encyclopedia of Early Christianity , N.Y. ١٩٩٠, p. ٣٩٣.*

[٢] ربما كان في عداد جد جده، وليس بالضرورة أن يكون متزوجًا وأنجب أولادًا.

ما ورثوه من ممتلكات واسعة، ووزع ثمنها على الفقراء والأعمال الخيرية وتأسيس سبعة أديرة. أسس دير القديس أندراوس على تل *Caelian hill* يتطلع على كولوسيم *Colosseum*، واستخدم بقية ممتلكاته في تأسيس الستة أديرة الأخرى.

استقال غريغوريوس من عمله وترهب، وازداد في التقشف إلى حد كاد يؤذيه لولا تدخل أصدقائه ليخففوا من شدته، وكل ذلك ربما من أهم أسباب اعتلال صحته باقي أيام حياته. كتب عنه روبرت باين Robert Payne: "استبدل الثوب الروماني الفضفاض الأرجواني بثوب راهبٍ خشن، وبدأ حياه نسكية غير عادية، يأكل الفاكهة والخضروات النيئة فقط، ويصلي أغلب الليل، مرتديًا قميصًا من الشعر، ملقيًا بكيانه في ممارسة التزامات أب الدير المتعددة[١]. "

في القسطنطينية

سامه البابا بيلاجيوس الثاني شماسًا، وأرسله إلى القسطنطينية مندوبًا عنه *apocrisiarius* لدى البلاط الإمبراطوري. مكث هناك من سنة ٥٧٩ حتى ٥٨٦ م، كتب أثناءها جزءً من كتابه في شرح سفر أيوب. ثم عاد إلى روما، حيث سُمح له بالرجوع إلى ديره مع استمراره سكرتيرًا للبابا، ثم صار رئيسًا للدير، وعاود تقشفه وعبادته لعدة سنوات. يرى البعض أنه عاش راهبًا بسيطًا بالدير ولم يحتل مركز الرئاسة كأب Abbot .

أسقف روما

لما انتقل البابا بيلاجيوس الثاني عام ٥٩٠ م خلال فترة انتشار وباء، استقر الرأي بإجماع الكهنة الشعب ومجلس الشيوخ على سيامته بابا بالرغم من اعتراضه الشديد ، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطي موريسيوس Mauricius يستعفي. غير أن الإمبراطور أقر الاختيار، فهرب غريغوريوس. لكنهم أحضروه إلى روما وسيم أسقفًا لروما.

شعر غريغوريوس أنه ليس أهلاً لنوال هذه الرتبة ولرعاية شعب الله، وفي نفس الوقت أدرك أن هذا العمل سيحرمه من ممارسة حياة الوحدة والسكون وتكريس طاقته للصلاة.

كتب غريغوريوس رسالة إلى ثيوكيتستا Theoctista أخت الإمبراطور الروماني عبّر فيها عن حزنه على عودته إلى حياة الكنيسة العامة وتسلم مركز قيادة. إنه يرثي حاله، قائلاً: "رجعت إلى العالم حيث أنشغل باهتمامات زمنية كثيرة، الأمر الذي لا أذكر إني كنت منشغلاً به قط حين كنت في مركز علماني[٢]".

هذه الرسالة تكشف عن طريقة تفسيره الرمزي للكتاب المقدس الذي تبنته مدرسة الإسكندرية منذ نشأتها، خاصة في القرن الثاني.

عندما دُعي لهذا المركز انسحب قلب غريغوريوس إلى حياة التأمل التي تطابق راحيل "العقيمة، وحاذقة النظر والجميلة (تك ٢٩) فمع سكونها كانت أقل خصوبة، لكنها ترى النور بأكثر حذاقة". أما ليئة فتمثل في نظر غريغوريوس حياة العمل، فهي "مثمرة، لكنها ضعيفة البصر، ترى أقل، وإن كانت تنجب أكثر. "

أيضا انسحب فكر غريغوريوس إلى مريم ومرثا، فيقول: "إني اشتهي أن اجلس عند قدمي الرب مع مريم لأتمتع بكلمات فمه. هكذا لقد أُلزمت أن أخدم مع مرثا في الشئون الخارجية، فأنشغل وأهتم بأمورٍ كثيرةٍ[٣]."

استمر بعد سيامته راهبًا بقلبه وسلوكه، وأحاط نفسه بالرهبان، وعاش بينهم في حياة ناسكة.

---

[١] *Payne: Fathers of The Western Church, N.Y, Dorset Press, ١٩٨٩, p. . ٢٠١.*
[٢] *Register of the Epistles, ١٢:٧٥.*
[٣] *Register of the Epistles, ١٢:٧٥.*

الظروف السياسية

لم ينشغل باهتماماته الخاصة في قليل أو كثير، ولكن ما كان يشغله هو الكنيسة والشعب. غريغوريوس كبابا حاول أن يكيف دور الكنيسة مع ظروف المجتمع الذي تعيش فيه، وفي نفس الوقت يطهرها من الفساد الدنيوي.

كان عصره مملوء بالإضطرابات، وكأن الله قد أعد الشخص المناسب في الوقت المناسب.

عاصر البابا غريغوريوس فترة عصيبة بالنسبة لروما، فكما نعلم أن آخر إمبراطور روماني عُزل سنة ٤٧٦ م، وفي ذلك الوقت كانت أغلب الإمبراطورية الغربية يحكمها ملوك ألمان[١].

تحولت إيطاليا من مملكة غوصية إلى مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية واستنفذها الحرب، غزاها اللمبارديون المتوحشون، وهم شعب تيوتوني غزا إيطاليا عام ٥٦٨ م، وتوالت هجماتهم على إيطاليا، هؤلاء كانوا لا يزالون وثنيين وبعضهم أريوسيين، قاموا بحرق الكنائس وذبح رجال الدين، ونهب الأديرة، والاعتداء على الراهبات، وتحويل الحقول إلى براري قاحلة[٢].

تأثر غريغوريوس بالآلام والخراب الذي حل بواسطة كل من الحروب الغوصية *Gothic Wars* التي أثارها جوستنيان الأول ليعيد تأسيس السيطرة على ريف إيطاليا والغارات على إيطاليا بواسطة اللامبارديين Lombards الذين منذ عام ٥٨٦ م كانوا يحاصرون المدن ويخربون الأرياف ويرعبون قلوب الكل.

بعزيمة قوية واجه غريغوريوس نقص الموارد، والتشويش الذي ساد على الشعب، ونقص الطعام، ونزح فيض من اللاجئين على روما. اهتم بإشباع احتياجات الشعب، وأكثر من هذا دخل في حوار مع اللامبارديين، وأقام سلامًا بينهم وبين إيطاليا، بالرغم من أن اتخاذ قرارٍ كهذا مستقلاً أثار غضب الإمبراطور المقيم في القسطنطينية.

تعرضت روما إلى السلب مرارًا وتكرارًا، وانتشرت فيها الأوبئة، وعمتها المجاعات.

كانت أوربا كلها في حالة من التشويش مع فوضى سياسية. لقد ظن كثيرون ومنهم غريغوريوس نفسه أن نهاية العالم على الأبواب. فقد جاء في إحدى عظاته:

"أي شيء يمكن في هذا الوقت أن يبهجنا في هذا العالم؟ نرى البلية في كل مكان، نسمع المراثي في كل موضع. المدن خربة، والقلاع مهدمة، والحقول أقفرت، بقيت قلة قليلة في المدن، وحتى هذه القلة المسكينة من البشرية كانوا مطحونين. الكوارث الصادرة عن العدل الإلهي لم تنقطع، لأنه لم يقدم أحد توبة وسط الكوارث. البعض أُخذ إلى السبي، وآخرون تُبتر أعضاء من أجسامهم وآخرون يُقتلون. ما هذا يا إخوة، حتى يمكننا أن نقتنع بهذه الحياة؟ إن كنا نحب عالمًا كهذا لسنا نحب أفراحنا بل جراحاتنا. ها نحن نرى ما قد صارت إليه تلك التي كانت سيدة العالم... لنحتقر قلبيًا العالم الحاضر ونتمثل بأعمال الأتقياء ما استطعنا[٣]".

رفع الوباء

بدأ أسقفيته بعمل عام حيث عمل على خدمة الكل بروح التواضع وسط الذين أصيبوا بالوباء المنتشر والذين ذهب ضحيته سلفه. طلب من كل كنائس المدينة المختلفة أن يبعثوا بمجموعات في بازليكا القديسة ماريا St. Maria Maggiore للتذلل أمام الله وطلب رحمته. كرس سبعة مواكب يجولون لهذه الخدمة، وقد انتقل منهم ٨٠ شخصًا أثناء خدمتهم للمرضى. قيل أن ملاكًا ظهر في قبر هادريان، حاليًا قلعة سان أنجلو Castel

[١] *Carole Straw: Gregory the Great, University of California, L.A. ١٩٨٨, p. ٢.*
[٢] *Schaff: History of the Christian Church, ١٩٨٦, p. ٢١٢*
[٣] *Schaff: History of the Christian Church, ١٩٨٦, p. ٢١٢-٢١٣*

San Angelo يغمد بسيف إشارة إلى نهاية الوباء.

مُحاط بالرهبان

يرى البعض انه هو أول راهب يسام أسقفًا على روما[1] وقد أراد أن يستخدم الرهبان في الأماكن الخالية بأسقفيته. هذا كان له رد فعل من الكهنة في أيامه وفي عشرات السنوات التالية له، إذ لم يقبلوا احتلال الرهبان هذه المراكز التي كان يشغلها الكهنة.

إدارة ممتلكات الأسقفية

بحكم مهارته الإدارية التي أهلته أن يكون قاضي روما وضع نظامًا راسخًا في إدارة ممتلكات الأسقفية التي كانت منتشرة في إيطاليا والغال وشمال إفريقيا وفي بلاد أخرى.

رسائله للموظفين العموميين المدنيين في الشرق والغرب، وللأساقفة والكهنة وغيرهم من القيادات الكنسية والعلمانيين تكشف عن عقلية قيادية جبارة استرضائية جماعية أو حازمة أو متشددة أو لطيفة حسبما يقتضي الأمر.

قائد روحي

مع نجاحه إداريًا كان بالأكثر قائدًا روحيًا، فاهتم جدًا برفع المستوى الروحي للرهبان ورجال الاكليروس، ونظِّم الحياة الرهبانية.

قام بحملة قوية متشددة ضد السيمونية، ومنع الكهنة من قبول أي أجر مقابل خدماتهم. وطلب من الكنيسة ان ترد الممتلكات التي نالها في ظروف متشكك فيها[2]. وحّرم عادة دفع الأساقفة مبالغ من المال كعادة سنوية للبابا، وأصدر قرارًا مجمعيًا بذلك سنة ٥٩٥ م.

حبه للفقراء

اشتهر بحبه للفقراء وسخائه في العطاء، فكان لا يتناول طعامه اليومي إلا إذا تأكد أن كميات من الأكل قد وُزعت على الفقراء. وكان لديه كشف دقيق بأسماء فقراء المدينة يرسل إليهم احتياجاتهم. لم يعرف حدودًا في عطائه للفقراء. لم يخجل أن يتقبل كثير من النبلاء والعظماء الذين افتقروا عطايا من يده. اهتم بالأيتام والأرامل، وافتدى عبيدًا وأسرى.

العمل الكرازي والإيمان الكنسي

شجع الإرساليات واهتم بها. قام بإرسال بعثة قوامها ٤٠٠ راهبًا من ديره بقيادة الراهب أغسطينوس سنة ٥٩٦ لإعادة نشر الإيمان في بريطانيا، بعد أن كادت المسيحية تتلاشى على يد السكسون الذين غزوا بريطانيا في نهاية القرن الخامس.

لقد رحَّب بعودة المملكة الغوصية لأسبانيا تحت Recared إلى الإيمان المستقيم مرتدة عن الهرطقة الأريوسية، الأمر الذي أُعلن بواسطة مجمع توليدو Toledo في ٨ مايو سنة ٥٨٩. بعث برسالة يهنئ فيها الملك ويحثه على التواضع والطهارة والرحمة. أيضًا تخلى اللومبارديون المكروهون عن الأريوسية في آخر أيامه، كثمرة أثره إلى حد ما على الملكة ثيؤدليندا Theodelinda التي عادت إلى الإيمان.

جاهد أيضًا في قمع ما تبقى من بدعة الدوناتست في شمال غرب أفريقيا. كما منع العماد الجبري

---

[1] *Everett Ferguson: Encyclopedia of Early Christianity , N.Y. ١٩٩٠, p. ٣٩٤.*
[2] *Carole Straw: Gregory the Great, University of California, L.A. ١٩٨٨, p. ٥.*

لليهود في الغال، ونادى أن يكون الإيمان بالإقناع والكرازة والحوار وليس بالقهر. بذل جهدًا في منع تجارة الرقيق التي كانت غالبيتها في يد اليهود، لكنه فشل في ذلك.

مرضه

لازمه المرض، غير انه لم يعرف الراحة، بل واصل العمل بكل قوة حتى وإن الزمه المرض أن يلقيه على السرير. وفي سنة ٦٠١ م كتب لصديق له: "إني عاجز عن القيام من سريري. إني أتعذب من مرض النقرس، يبدو كأن نارًا تعم جسمي كله. أن أحيا فهذا مؤلم، فإني أتطلع إلى الموت بكونه العلاج الوحيد[١]".

وفي خطاب آخر كتب:"إني أموت كل يوم، لكنني لم أمت[٢]".

[١] *Schaff: History of the Christian Church, ١٩٨٦, p. ٢١٥*
[٢] *Schaff: History of the Christian Church, ١٩٨٦, p. ٢١٥*

البابا غريغوريوس والأسقفية الجامعة[1]

خصص شاف Schaff فصلاً عن شخصية الأب غريغوريوس ونظرته إلى السلطة على المستوى المسكوني. فمع ما ناله من سلطة على الكنائس اللاتينية إلا أنه لم يكن يُعرف في ذلك الحين امتداد السلطة على الكنائس الشرقية، بل ما هو ملاحظ بالأكثر أن هذا الأب يجحد مثل هذا الفكر. لقد تطلع إلى الأربعة بطاركة ففي القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم (الملكيين) الذين أعلن لهم عن اختياره بإرسال اعتراف بإيمانه كالمعتاد كقادة شركاء معه في قيادة الكنيسة خلال الرأس ربنا يسوع، رأس الكنيسة الفائق.

البطريرك المسكوني

كبطريرك في الغرب امتدت رعايته إلى كنائس إيطاليا والغال وأسبانيا وبريطانيا دون المطالبة بأي سلطان شرعي عليهم.

روحانيته العميقة مع قوة شخصيته واتساع فكره، هذا كله دفعه لمقاومة فكرة وجود أسقف أو بابا مسكوني له سلطة مسكونية علي الإيبارشيات الأخرى، هذه التي تبناها بالأكثر البابا لاون.

كان يرفض تمامًا فكرة "البطريرك المسكوني" بالنسبة له أو لغيره من رؤساء أساقفة الإيبارشيات[2].

صراع مع بطريرك القسطنطينية

اعتاد الأب يوحنا الرابع بطريرك القسطنطينية أن يلقب نفسه في رسائله "**الأسقف المسكوني**" أو "الجامعي". كان هذا لقب شرف أعطاه الإمبراطوران لاون وجوستنيان ليوحنا وخلفائه، وتثبت في مجمع بالقسطنطينية عام ٥٨٨ م. وقد استخدم هذا اللقب في مجمع خلقيدونية بالنسبة للبابا لاون (الذي يرى الدارسون أنه أول من صارع ليحمل لقب الباباوية بمفهوم السلطة العامة على الكنيسة الجامعة).

اعتبر الأب غريغوريوس أن هذا اللقب فيه غباوة وكبرياء وتجديف وشر وتدنيس للمقدسات ووباء واغتصاب شيطاني، ويقارن كل من يستخدم هذا اللقب بلوسيفر (الشيطان).

لقد كتب لمندوبه أو سفيره في القسطنطينية سابينيانوس Sabinianus. عاد فكرر الكتابة للبطريرك ثم للإمبراطور موريسيوس Mauricuis بل وللإمبراطورة.

لقد هدد بقطع الشركة مع البطريرك. طالب الإمبراطور بمعاقبة مثل هذه الوقاحة، مذكرًا إياه بتلوث كرسي القسطنطينية بنسطور رئيس الهراطقة[3]. وإذ فشل في مسعاه كتب إلى بطريرك الإسكندرية وأنطاكية (الملكيين)، أما هما فاعتبرا اللقب لقباً شرفياً، وخاطبه أحدهما بدعوته "**البابا المسكوني**"، ولم يحتمل الأب غريغوريوس أن يُلقب هكذا نهائياً[4].

بعد انتقال البطريرك يوحنا الرابع طلب الأب غريغوريوس من مندوبه بالقسطنطينية أن يطلب من البطريرك الجديد كرياكوس Cyriacus أن يجحد هذا اللقب الشرير كشرط لقبوله في الشركة معه. وفي خطاب بعث به إلى الإمبراطور موريسيوس كتب: "**كل من يدعو نفسه كاهناً جامعياً، أو يرغب في هذا، هو سابق لضد المسيح**[5]".

---

[1] *Schaff: History of the Christian church, vol. ٤, ch. ٤, ٥١.*
[2] *Cf. Everett Ferguson: Encyclopedia of Early Christianity , N.Y. ١٩٩٠, p. ٤٨٨.*
[3] *PL ٣:١٣٣- ٧٥١.*
[4] *Epistle, ٥:٤٣.*
[5] *Epistle, ٧:١٣.*

في مقابل هذا اللقب المكروه لديه، دعا الأب غريغوريوس نفسه في تواضع شديد: "**خادم خدام المسيح**". مع هذا لم تجد جهوده أي صدى لدى البطريرك القسطنطيني ولا عند الإمبراطور.

نقطة سوداء في حياة هذا الأب!

هذا ما دفعه إلى الترحيب بتغيير الحكومة الذي حدث عام ٦٠٢ م خلال ثورة عنيفة. لقد أسرع يهنئ فوكاس Phocas العنيف، الجاهل، والمغتصب الحكم، البشع في قتله الملك موريسيوس وكل عائلته: الإمبراطورة والأبناء الستة والثلاث بنات، مغتصباً العرش، كما هنأ زوجته ليونتيا Leontia التي لم تكن أفضل من زوجها. كتب بأسلوب حماسي داعياً السماء والأرض أن تفرحا لاعتلائهما العرش، وقد حط من شأن الإمبراطور المقتول كطاغية تحررت الكنيسة من نيره[١].

هذه نقطة سوداء في حياة هذا الأب، لكن دافعه في هذا كراهيته الشديدة أن ينسب أسقف ما نفسه كاهنًا مسكونياً صاحب سلطان على إخوته. ولعله فعل هذا بدعوى الغاية تبرر الوسيلة، الأمر الذي لا يليق بالمسيحي.

أخذ القاتل المغتصب جانب الأب غريغوريوس ضد بطريركه قرياقوص لأنه كان متعاطفاً مع الإمبراطور المغتال. لقد دعا الإمبراطور المغتصب كنيسة روما "رأس كل الكنائس".

ملك فوكاس من سنة ٦٠٢ إلى ٦١٠ حيث نُزع عنه التاج وقُيد بالسلاسل، وقُطعت رأس،ه وألقي في النيران وخلفه هيراقليس Heraclius.

استخدامه لقب "الأسقف المسكوني"

العجيب أنه تبادل فيما بعد الرسائل مع بطريرك القسطنطينية في تكريم الواحد للآخر، فكان يدعوه "**الأسقف المسكوني**"، الأمر الذي نعته قبلاً بأبشع السمات.

تبادل الرسائل مع بطريركي إسكندرية وأنطاكية الملكيين، وتجاهل بطريرك أورشليم.

وعندما كتب إليه أولوجيوس بطريرك إسكندرية الملكي (غير الشرعي) ودعاه "**البابا المسكوني**" تبرأ بكل قوة من هذا اللقب، قائلاً:

"**إني أقول بأنه بالنسبة لي أو لغيري يلزم ألا تكتب أمرًا كهذا.**

يا لهذا! لقد استخدمته في مقدمة رسالتكم لي أنا الذي أرفضه، هذا اللقب المتشامخ بالبابا الجامعي، الأمر الذي أتوسل إلى قداستكم الكلية العذوبة ألا تفعله مرة أخرى. لأن ما يُعطي للغير ويتعدى التعقل يلزم أن تطرحه.

إني لا أستريح لكرامةٍ بها اشعر أن إخوتي يفقدون كرامتهم.

كرامتي هي من كرامة الجامعة (أي من كرامة كل الأساقفة).

كرامتي هي قوة إخوتي الثابتة.

إني بالحق أُكرم عندما يسمح للكل كما لكل واحدٍ الكرامة التي تليق بهم.

فإن كنت تلقبني بابا مسكوني [بمعنى انك أنت نفسك لست بابا] لا تفعل هذا بعد.

تباً لهذه الكلمات التي تضخم الكبرياء وتجرح المحبة[٢]".

اعترض أيضاً على تعبير أولوجيوس "**كما تأمر**" الذي ورد في خطابه للأب غريغوريوس، فكتب له:

---

[١] *Epistle ١٣:١٣Pl ٣:١٢٨١.*

[٢] *Schaff, p. ٢٢٣-٢٢٤, Epistle ٨:٣٠. pl ٣:: ٩٣٣.*

"أسألك لا تسمح لي أن أسمع كلمة "تأمر".
فإنني أعرف من أنا ومن أنتم.
فمن ناحية المركز أنتم إخوتي، وفي السلوك أنتم آبائي.
لهذا لم أأمر، إنما فقط أشتهي أن أشير إلى ما يبدو لي أنه لائق[١]".

[١] *Epistle* ٨:٣٠.

أفكاره

تشكك كثير من الدارسين في معرفة هذا الأب لليونانية[١]. لكن مع أن أعمال القديس أغسطينوس خدمت هذا الأب كمكتبة رئيسية يستقي منها الكثير من مفاهيمه إلا أنه كان يقرأها من خلال التقليد الشرقي الذي كان بأحاسيسه أقرب إليه من أغسطينوس. يبدو أنه قرأ ترجمات أعمال العلامة أوريجينوس والقديسين غريغوريوس النزينزي والنيسي. كما أن حواراته مع أصدقائه جعلته ملمًا بالأفكار الشرقية. هذا وقد عرف غريغوريوس القديس يوحنا كاسيان معرفة جيدة، هذا الذي كتب مناظراته مع آباء برية مصر وكتاب الدساتير الذي يصف الرهبنة المصرية ورهبنة فلسطين وغيرها من الأعمال. لقد عرف أيضًا الكثير من "حياة الآباء *Vitae patrum*" خاصة التي ترجمها الشماس الذي صار فيما بعد البابا بيلاجيوس الأول (٥٥٧– ٥٦١) ومساعد الشماس الذي صار البابا يوحنا الثالث (٥٦١–٥٧٤) وكتاب روفينوس عن تاريخ الرهبنة في مصر *Historia Monachorum* وغيرهم. هذه الكتابات لها أثرها الخفي على أعماله، وقادت غريغوريوس في اتجاه مختلف عن القديس أغسطينوس وغيره من كثير من آباء الكنيسة في الغرب[٢].

الكتاب المقدس

انشغل غريغوريوس قبل أسقفيته بتفسير الكتاب المقدس. وإذ صار أسقفًا أثمر جهده في التفسير خلال العظات التي ألقاها على شعب روما في أيام الآحاد والأعياد.

تفاسيره الموجودة حاليًا هي تفسير سفر أيوب وسفر ملوك الأول. أما التفاسير المفقودة فهي على الأمثال ونشيد سليمان وكتب الأنبياء، وكل الملوك والتكوين حتى القضاة.

اتسمت كتاباته بالكشف عن التكامل بين العهدين القديم والجديد، وأيضا بين النفس والجسد... فهو يرى أن العهد القديم في اهتمامه بالأمور الظاهرة الخارجية يهيئ المؤمن لقبول ما في العهد الجديد من أمور خفية داخلية. والتمتع بهذه الأمور الداخلية يقودنا إلى قبول ما في العهد القديم بفكرٍ روحيٍ لندخل إلى أعماق جديدة. وكأن المؤمن ينطلق خلال الجسد ليبلغ الروح، لكنه يعود إلى الجسد ليكون روحيًا بحق، إنها حركة دائرية لا تتوقف، تكشف عن روح الوحدة. يشبه المؤمن بيعقوب الذي بدأ بليئة رمز العهد القديم، ثم تزوج براحيل رمز العهد الجديد، وإذ أثمرت الأولى تمتع بأبناء من راحيل، ثم عاد لينجب من ليئة وهكذا. هذه صورة حية للوحدة بين عالمنا المنظور الذي يعلن عن أسرار العالم غير المنظور في الوقت الحاضر.

التفسير الرمزي للكتاب المقدس

سبق لي الحديث في شيء من التوسع عن التفسير الرمزي وعلاقته بالتفسير الحرفي أو التاريخي، والتفسير السلوكي أو الأخلاقي، خاصة بالنسبة للعلامة أوريجينوس[٣]. دافع غريغوريوس عن استخدامه للتفسير الرمزي حاسبًا أنه بهذا يقيم من النص قلادة من الذهب أو حلي متنوع، وهو يكشف عن غنى الأسفار المقدسة وأعماقها، وأنها تليق بزينة العروس السماوية[٤].

---

[١] *Cf. Joan Peterson, "Did Gregory know Greek?" in "The Orthodox Churches and the West," ed. Derek Baker, Oxford ١٩٧٦, p. ١٢١-١٣٤.*

[٢] *Carole Straw: Gregory the Great, University of California, L.A. ١٩٨٨, p. ١٣-١٤.*

[٣] *Cf. School of Alexandria, Book ١ and ٢*

أباء مدرسة إسكندرية الأولون، الفصل الخاص بالعلامة أوريجينوس.

[٤] *Register of the Epistles, ١٢.*

فكره اللاهوتي

الأب غريغوريوس (الكبير) راهب ناسك ودارس كتابي يهتم بالتفسير الرمزي دون تجاهل للتفسير التاريخي والأخلاقي، وراع مهتم بخلاص النفوس، لكنه ليس باللاهوتي المبدع. لقد تأثر جدا بالقديس أغسطينوس ونقل عنه الكثير من الأفكار اللاهوتية، خاصة حالة سقوط البشرية بالخطية الجدية (الأصلية)، أولوية النعمة في الخلاص، الاختياري الإلهي، دور الأسرار الوسيط، معنى التاريخ، الخبرة السرية (الحياة الباطنية).

الذبيحة

يرى البعض أن "الذبيحة" هي مركز لاهوت البابا غريغوريوس (الكبير)، سواء ذبيحة السيد المسيح أو ذبيحة المؤمن. خلال الذبيحة يصير الجسداني روحانيًا[١]. تصير في المسيح المصالحة محققة، إذ يحمل الجانبين من الحقيقة التي في ذات الآن، إذ هو الله والإنسان (الإله المتأنس)، هو المُصالح المُصالَح.

التجسد في ذاته ذبيحة دائمة، ومع هذا فإن الكفارة عن الخطية يتطلب أن الذي جاء لكي يبطلها وينزع نتائجها يقبل العقاب عنا[٢]. لا يمكن محو الخطأ إلا بذبيحة، هذه التي لا تقدم خلال حيوان غير عاقل ولا بإنسان خاطئ، بل من هو بلا عيب وقدوس[٣]، الذبيحة التي فيها يسوع المسيح هو الكاهن والذبيح. لقد قدم حياته ذبيحة[٤].

إنه يشبه العلامة أوريجينوس والقديس أغسطينوس، يؤمن بأن حياة المسيح كلها ذبيحة، في كتابه *Moralia in Job* يركز الأب غريغوريوس على ذبيحة حياة أيوب من جهة الطاعة لله. يفسر اسم أيوب بأنه يعني "الحزن" *dolens*، حزن آلام المخلص[٥]. واقعيًا كل عمل لأيوب أو لإنسان يمارسه أمام الله هو ذبيحة، وتقدمه لله. توجد ذبيحة[٦]، الحياة[٧]، الهداية[٨]، الطاعة[٩]، التواضع[١٠]، الجسد[١١]، الحياة الجسدانية[١٢]، العفة[١٣]، الندامة[١٤]، الخوف[١٥]، الدموع[١٦]، الأعمال[١٧]، الفضيلة[١٨]، التأمل[١٩]، الصلاة[٢٠]، التسبيح[٢١].

الخلاص والأسرار

يرى البابا غريغوريوس أنه قبل مجيء السيد المسيح كانت الخطية الجدية تُمحى من الأطفال بالإيمان

---

[١] *Carole Straw: Gregory the Great, University of California, L.A. ١٩٨٨, p. ٢٠.*
[٢] *Magna Moralia in Job ١:٣٢.*
[٣] *Magna Moralia in Job ١٧:٣.*
[٤] *Magna Moralia in Job ١٧:٤٦.*
[٥] *Magna Moralia in Job, praef ٧:١٦.*
[٦] *Magna Moralia in Job ٩:٥٥:٨٤.*
[٧] *Magna Moralia in Job ٦:٣٧:٥٦.*
[٨] *Magna Moralia in Job ٣٥:٨:١٤.*
[٩] *Magna Moralia in Job ٣٢:٣:٤.*
[١٠] *Magna Moralia in Job ٢٦:٢٦:٤٧.*
[١١] *Magna Moralia in Job ٦:٣٧:٥٦.*
[١٢] *Magna Moralia in Job ٢٨:١٨:٤١.*
[١٣] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:٨:١٩.*
[١٤] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:١٠:٤.*
[١٥] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:١٠:٤.*
[١٦] *Dialogues ٤:٦٠:١.*
[١٧] *Magna Moralia in Job ٦:٣٧:٥٦.*
[١٨] *Magna Moralia in Job ٦:٣٧:٥٦.*
[١٩] *Cant ١:٥.*
[٢٠] *Magna Moralia in Job ٣٥:١١:٢١.*
[٢١] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:١٠:٤.*

المجرد، أما بالنسبة للراشدين فتلزم أيضاً الذبيحة، ويُمارس الختان بالنسبة لأبناء إبراهيم. أما الآن فالمعمودية لازمة لتحقيق ذلك، ولا يمكن أن يحل محلها شيء سوى الاستشهاد بكونه عماداً كاملاً[١].

الفكر الرؤيوي

لعل من أثار الفكر الرهباني الشرقي على هذا الأب أنه يرى في نفسه كأنه في ساحة معركة ضد قوات الظلمة، وأن هذه المعركة ليس إلا بدء انطلاق للمعركة الحاسمة النهائية مع الشيطان وضد المسيح.

يرى في الحروب والمجاعات والضيقات التي يثيرها عدو الخير نذير بنهاية العالم[٢].انشغاله بالعالم الآخر كعالم ليس بغريب عنه بل قريب إليه ومعروف ينبع عن خبرته في المعركة ضد قوات الظلمة، فمع كل معركة يرى النهاية تقترب، ويرى بالأكثر العالم العتيد[٣].

نظرته للعالم

كان غريغوريوس يرى العالم منقسمًا إلى عالم النقاوة وعالم الدنس، وأن الأبرار ملتزمون أن يعيشوا بين الفاسدين، مثل أيوب الذي صار أخًا للتنانين وصديقًا للنعام (أي ٣٠: ٢٩)[٤].

الكرازة

يربط الأب غريغوريوس (الكبير) بين التمتع بالأسرار الكنسية بروحانية وبين الاهتمام بكل نفس لخلاصها.

التوازن بين الحياة العاملة والحياة التأملية

مع خبرته الرهبانية وسلوكه كراهب حتى في أسقفيته لم ينشغل بتقديم الحياة الرهبانية، بل كراعٍ اهتم بالشعب ككل دون تجاهل الرهبان والبتوليين. فيتحدث مع الرجل والمرأة، الشعب والكهنة والرهبان، وهو في هذا تسنده حياته الرهبانية الجادة. كان هذا الأب مهتمًا جدًا بالتوازن بين الحياة العاملة وخدمة النفوس والكرازة والحياة التأملية.

رأينا كيف دخل في صراع داخلي بين شوقه العميق للحياة التأملية ورغبته الحارة لخلاص الناس في بدء سيامته أسقفًا على روما. وحسب مسؤوليات الرعاية تحرمه من التمتع برؤية أدق وأجمل لله. لكن كما سنرى في كتابه عن الرعاية كيف يصالح بين الحياتين.

حقا لقد اختبر حياة التأمل وعشقها، لكن لا تنسى خبرته كقاضي قضاة روما التي حسبها شهادة حية لإيمانه العملي، وعندما التحق بالرهبنة عاد ليكون المندوب البابوي في القسطنطينية (٥٧٩ م). ولما عاد ثانية للرهبنة اختاره البابا بيلاجيوس الثاني شماسًا يسنده في العمل الرعوي، وأخيرًا خلفه على كرسى روما. حياته مزيج عملي بين حياة التأمل وحياة العمل.

خطاباته الأولى بعد سيامته أسقفا تعكس تعبه الداخلي ومقاومته، فقد حزن بمرارة على فقدان هدوئة وسكونه والتزامه بالعمل وحمل نير المسئولية.

يعود فيسجل لنا ان معقل الفضيلة هو العقل والقلب لا القلاية المجردة، وأن ممارسة نوع من النسك هو في متناول يد كل أنواع المسيحيين مع اختلاف درجات نموهم الروحي. كل مسيحي له فرصته للتمتع بروح

---

[١] *Magna Moralia in Job ٤: preaf. PL ٣:٦٣٥.*
[٢] *Magna Moralia in Job. ٣٤:١:١: Epistle ٥:٣٦, Homilies on Ezekiel, Homily ٢: ٦:٢٢-٢٤.*
[٣] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:٤:١٢.*
[٤] *Epistle ١١:٢٧.*

التمييز والسكون الروحي والهدوء. المسيحية في ذهنه شاملة، أبوابها مفتوحة للجميع.

في الحوارات[1] يكشف البابا غريغوريوس عن فرحه بتلميذه بطرس مؤكدًا أنه حتى في أيامه يوجد قديسون على مستوى قامة عالية كأولئك الذين كانوا في العصور السابقة.

المعجزات

يؤكد البابا غريغوريوس نبوة الإنجيل عن تزايد الآيات والعجائب عندما يقترب العالم من النهاية[2]، يتوقع حدوث معجزات في المعركة النهائية مع قوات الشر.

التجارب

بينما كان يعاني من المتاعب الداخلية كان يؤكد أن الحب يلزم أن يغلب الألم. فبالرغم من الضربات، لكن يبقى الله هو أب الإنسان. ما يبدو قسوة من الله بتحول على الأقل جزئيًا كضرورة لاختبار رحمته في تدريبه أولاده. جراحاته تعادل عطاياه وخبزه. يتقبلها المؤمن، مقدمًا الشكر مع الدموع. إنه مثل أيوب يواجه الموقف كما في صراع بين شعوره بالألم والتزامه به كضرورةٍ. أنه يصارع ليقبل تدبير الله حتى وسط الشدائد بكونها صادرة عن أبٍ محبٍ، لا قاضٍ عادلٍ.

تطابق حياته بحياة أيوب

في أكثر من موضع يسجل لنا البابا غريغوريوس تطابق حياته مع حياة أيوب من أجل كثرة ما كان يعانيه من متاعب في جسده كما من الظروف المحيطة به. فقد جاء في ختام تفسيره لسفر حزقيال: [لماذا ألزم كل يوم أن اشرب المرارة، بينما يمكنني أن أهرب إلى البرية، ماذا يتبقى سوى تقديم التشكرات بدموع وسط البلايا التي نعاني منها بسبب خطايانا؟ أن ذاك الذي خلقنا نفسه صار أبانا خلال روح التبني الذي أعطانا. أحيانًا يمد أبناءه بالخبز، وأحيانا أخرى يصلح من شأنهم بالمحن، حيث أنه بالأحزان والجراحات كما بالعطايا يدربهم لنوال ميراثهم الأبدي[3].]

يعلن الأب غريغوريوس أنه ملزم أن يشرب من المجاري المرة وهو يتوق أن يتمتع بعذوبة الله.

هزيمة الشيطان

تحدث كثير من الآباء الأوائل عن هزيمة إبليس الذي إذ رأى في يسوع الشخص الذي يبدو ضعيفاً فاضطهده وانقض عليه بالموت كما فعل بكل بني آدم، إذا به يتحطم بموت المسيح. كثيراً ما تحدث العلامة أوريجينوس عن ذلك، وقد شبه القديس مار أفرام السرياني الشيطان بالذئب الذي انقض على يسوع الحمل ليفترسه، وإذ ابتلعه الموت لم تحتمل معدته ذلك ففجَّرها، واخرج الذين سبق فأسرهم الموت في داخله. وشبه القديس غريغوريوس النيسي الشيطان بسمكة شرهة انقضت على الطُعم، فأُمسكت السنارة بها[4]، ويشبهه غريغوريوس (الكبير) بالطائر الذي اجتذبته الحنطة، فسقط في الشبكة[5].

لقب "الكبير"

---

[1] *Dialogues ١:١٢:٤.*
[2] *Dialogues ٤:٤٣:٢.*
[3] *Homilies on Ezekiel, Homily ٢:١٠:٢٤.*
[4] *J.Tixeront: History of Dogmas, vol. ٢, P. ١٥٥.*
[5] *Moral ٣٣:٣١.*

مساهمة هذا الأب الفعالة وجهاده من أجل كنيسة روما لذا لقبته بالكبير. فقد بذل جهدًا مضنيًا من أجل مواطني روما، وقدم عظات كثيرة، أغلبها ألقاها وهو يعاني من مرض خطير، كما اتسم بقدرته الإدارية والتنظيمية، فكان ناسكًا متعبدًا وراعيًا مثاليًا.

كتابات البابا غريغوريوس

يرى بعض الدارسين أن البابا غريغوريوس أوغسطيني معتدل، مع أسلوب عملي واقعي، بجانب اهتمامه بالجانب التأملي والتفسير الرمزي. كتاباته تقليدية غير نقدية. كان يستخف بالدراسات الزمنية الكلاسيكية، لكنه كان بليغًا في وعظه، ولم يباره أحد في عصره في الغرب.

نظرته للنعمة والخطية شبه بيلاجية، يرى أن مصير الإنسان يعتمد على سبق معرفته بالله. يرى في الطبيعة الساقطة أنها طبيعة ضعيفة لكنها ليست ميتة. كثيرًا ما يركز على استحقاق الأعمال الصالحة، وهو المسئول الأول عن تعليم نيران المطهر، فيرى أن تُقام قداسات لصالح النفوس في المطهر.

١. تفسير سفر أيوب *Magna Moralia in Job*

بدأ هذا العمل الضخم في القسطنطينية في شكل سلسلة دراسية كان يلقيها على زملائه الرهبان القادمين معه من روما، حين كان مندوبًا بابويًا. كتبه بناء على طلب ليندر Leander الذي صار أسقفًا لسيفيل Seville، ثم قام بتكملته بعد سيامته أسقفًا لروما.

يعتبر هذا التفسير المطول تفسيرًا للكتاب المقدس ككل، إذ نسج فيه تعليقات على كثير من نصوص واردة في أسفار أخرى.

يضم ثلاثة تفاسير لسفر أيوب: التفسير التاريخي أو الحرفي، والتفسير الرمزي، والتفسير الأخلاقي السلوكي. في الرسالة التي قدم فيها الكتاب كافتتاحية له شبَّه تفسيره للكتاب المقدس ببناء **أساسه** هو التفسير الحرفي، وأما التفسير الرمزي فهو **الحوائط** التي يقيمها على الأساسات كمبنى معماري للتعليم، والتفسير الأخلاقي ينتشر بكونه **الألوان الجميلة** التي يغطي بها البناء. هكذا لم يتجاهل الثلاثة أنواع من التفسير، بل حسبها تكمل بعضها البعض ليقوم المبنى الواحد بأساساته وهيكله وزينته.

عدم معرفته لليونانية والعبرية وللعادات الشرقية بالرغم من إقامته فترة ما بالقسطنطينية جعلته غير مؤهل لتقديم تفسيرٍ تاريخيٍ ولغويٍ.

ما كان يشغله بالأكثر التفسير الرمزي، فكان يقرأ ما وراء السطور ليرى شخص السيد المسيح معلمنا. يرى في أسماء الأشخاص والأشياء والأرقام في الأحداث مفاهيم سرية. يرى في أيوب رمزًا للسيد المسيح، وزوجته تمثل الطبيعة الجسدية وأبنائه السبعة رمزًا للرسل الكاملين، وبناته الثلاثة رمزًا للإيمان والرجاء والمحبة، أو للشعب المتعبد للثالوث القدوس، وفي أصدقائه رمزًا للهراطقة، والسبعة آلاف من الغنم المسيحيين الكاملين، والثلاثة آلاف جمل الوثنيين والسامريين، الخمسمائة نير للثيران وخمسمائة من الأتن رمزًا أيضًا للوثنيين كقول إشعياء النبي "الثور يعرف قانيه والحمار معلف سيده، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم"

أما التفسير الأخلاقي فهو شرح للسابق بطريقة وعظية للبنيان السلوكي.

٢. الرعاية *The Pastoral Care* (*Liber Reguloe Postoralis*)

كتاب بديع نافع ليس فقط للقادة الكنسيين، بل لكل إنسانٍ روحيٍ في يده سلطة أو مسئولية، سواء كان مرشدًا أو والدًا أو رئيس عمل.

في هذا العمل الذي يضم أيضًا تفاسير رمزية لبعض نصوص من الكتاب المقدس يكشف الأب غريغوريوس عن خدمة الأسقف الفعالة، فمع حزن هذا الأب على تركه حياة السكون الرهبانية، لكن بقلبه الملتهب بحب الله الناري كرس كل طاقاته لخدمة النفوس.

كتب هذا العمل بعد سيامته أسقفا بفترة وجيزة، فقد أراد أن يضعه نصب عينيه كدستور لحياته وخدمته كراعٍ للنفوس. كيف يهتم بسلوكه وتقديم المشورات الروحية دون تخلي عن مسئوليته التنظيمية والإدارية. كيف يكون سفيرًا لله لا تفارقه كلمة الله، ومثالاً حيًا لإنجيل عملي مفتوح.

يضم أربعة أجزاء أو أبواب، يقدم في هذا العمل اللاهوت الرعوي، وها بين يديك الترجمة العربية للبابين الأولين، وبمشيئة الله تقوم الكنيسة بنشر البابين الأخيرين بعد تعريبهما.

ترجم إلى اليونانية بأمر من الإمبراطور موريس، وإلى الأنجلوساكسون Anglo Saxon بأمر الملك الفريد Alfred، وكان يُقدم للأساقفة في فرنسا عند سيامتهم مع كتاب القوانين كمرشد لهم في إتمام رسالتهم.

٣. الحوارات *The Dialogues*

هذه الحوارات بين الأب غريغوريوس ورئيس الشمامسة الروماني بطرس، وضعها في أربعة كتب حيث يعدد سير وعجائب ورؤى القديسين والقديسات في إيطاليا، وعن خلود النفس، ويحوى الكثير من حروب الشياطين خاصة في الأديرة. لقد أشار إلى أنه عرف هذه القصص سماعًا، مدافعًا عن ذلك بأن مرقس ولوقا اللذين سجلا إنجيليهما سماعًا من شهود.

إذ قارن بعض الدارسين بين أعمال غريغوريوس الأخرى مثل كتاب الرعاية ورسائله وتفاسيره لكثير من أسفار الكتاب المقدس هذه التي تكشف عن شخصيته الرائدة الممكنة والإرادة الحازمة مع سمو فكري روحي كتابي وبين هذا العمل حسبوا وجود تناقض. فمع ما لهذا العمل من جاذبية، غالبًا ما يُقتبس كشهادة على انحطاط الحسية الدينية والتحول إلى الخرافات في القرن السادس في إيطاليا. يرى Adolf Harnack في القرن التاسع عشر أن غريغوريوس لجأ إلي ثقافة منحطة تسقط في خزعبلات وتؤمن بالسحر، وأنه خلق عملاً دينيًا غير ناضج[١].

يرى تكسيرونت J.Tixeront أن الأب غريغوريوس وجد تعزيته (تسليته) للتحول من ثقل أعباء المسئوليات والمتاعب التي تحيط به من كل جانب، فيهرب إلى هذه العجائب التي لم تكن موضع تساؤل بالنسبة له[٢].

يتعجب شاف كيف يمكن لإنسان مثل غريغوريوس صاحب الفكر المتزن والقدرة العقلية الثاقبة أن يصدق عجائب غريبة طفولية. ويقول أن هذه الحوارات هي المصدر الرئيسي للمعتقدات الخرافية للاعتقاد بالمطهر في العصر الوسيط. وقد أمر الملك الفريد بترجمتها إلى الأنجلوساكسونية Anglo Saxon.

غير أنه قام بعض الدارسين بالدفاع عن هذا العمل، وكما يقول Boglion أن القارئ المعاصر يصعب عليه إدراك هذا العمل لأنه لم يعش في عالم غريغوريوس في ذلك الحين.

خلال الدراسات الحديثة ومقارنة ما ورد في هذا العمل بما جاء عن سير قديسين نساك في الشرق تغيرت الفكرة، وأدرك البعض أن ما ورد في العمل ليس بخرافات، وإنما خبرة عاشها قديسون وتمتعوا بالحضرة الإلهية وانعموا بقوة فائقة. فما ورد من معجزات خارقة ورؤى هي عطية صادقة لبعض القديسين.

يروى الكتاب الثاني من "الحوارات" حياة ومعجزات بندكت *Benedict of Nursia* مؤسس دير مونتي كاسينو *Monte Cassino*، مؤسس النظام البندكي وقد جمع ذلك من أشخاص عرفوا هذا الآب.

٤. سجل الرسائل

---

[١] *History of Dogma, N.Y. ١٩٦١, vol. ٥, p. ٢٦٢*

[٢] *J.Tixeront: History of Dogmas, Vol.٣, ١٩١٦, P.٣٠٦*

سجل يحوي أكثر من ٨٥٠ رسالة. من أجل اهتمامه بالكنيسة كان على اتصال بالنبلاء والملوك والملكات وإرساليات في الغرب، والأباطرة والبطاركة في الشرق، وأشخاص آخرين في كل العالم المسيحي.

تقدم لنا أفضل فكرة عن شخصيته ووزناته الإدارية بفكرٍ روحي عملي، وعن تحول الأنجلو ساكسونيين. تعالج مواضيع لاهوتية وأخلاقية وسياسية ودبلوماسية ورهبانية وأسقفية وتدابير باباوية. تعطينا صورة حية عن التزاماته المتعددة واهتماماته ورقة مشاعره وعواطفه.

٥. عظات على حزقيال Homilies on Ezekiel

عبارة عن ٢٢ عظة أُلقيت في روما خلال حصارِ Agiluph، رُوجعت بعد ذلك.

٦. خمسون عظة على الأناجيل

ألقاها في أوقات متباينة ما بين عام ٥٩١ و٥٩٢ م، نشرت بعد ذلك. ترجمها عن اللاتينية Dom David Hurst إلى الإنجليزية، وقام بنشرها Cistercian Publications تحت رقم ١٢٣ عام ١٩٩٠. وهي تمثل تفسيرًا رمزيًا لنصوص كثيرة من العهدين، مع إرشادات عملية في الحياة. فالتأمل الروحي والرمزي ليس هروبًا من الواقع إنما هو رفع القلب والفكر إلى السماويات دون تجاهل للواقع الزمني.

٧. الأسرار الغريغورية وقانون القداس الإلهي

نظم قانون القداس الإلهي معتمدًا على الأنظمة التي وضعها جلاسيوس Gelasius ولاون الأول مع شيءٍ من التعديل.

٨. تجميع أنتيفونات Liber Antiphonarius (Antiphons)

قام بتجميع بعض الترانيم التي تُرنم بالمناوبة التجريبية، وربما وضع عليها إضافات. توجد ألحان لاتينية أخرى كثيرة منسوبة إليه يتشكك البعض في نسبتها له.

٩. كتابات أخرى

توجد كتابات أخرى تُنسب إليه مثل تفسير سفر ملوك الأول، وتفسير لنشيد الأناشيد.

الجزء الأول

مسئولية الراعي

مقدمة للمؤلف

من غريغوريوس إلى أخيه المكرم الأسقف الشريك القديس يوحنا.

أخي العزيز، إنك تلومني في عطف وتواضع لأنني قصدت باختبائي هذا، الهروب من ثقل الأعباء الرعوية. وكل ما أخشاه أن تظهر هذه الأعباء للبعض وكأنها هينة وبسيطة لذلك قصدت من هذا الكتاب أن أبين كم هي شاقة كي يعلم الذين لم يحملوا نيرها أنه لا ينبغي لهم . في نظري . أن يسعوا بجهالة في طلبها. أما الذين قد صاروا جهلاء لرغبتهم الملحة فيها فليشعروا بخوف في اقتنائها.

ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة مواضيع منفصلة، حتى يمكن أن تصل الرسالة إلى ذهن القارئ في ترتيب وخطوة بخطوة. طبيعة الموضوع تتطلب من الراعي أن يدرك جيدًا:

أولا: ماهية الطريقة التي ينبغي بها الإقدام إلى مكانة عالية المقدار كهذه.

ثانيًا: كيف يسلك الراعي حين يصل إليها باستحقاق، وكيف ينبغي أن يُعَلم الآخرين حياة الاستقامة، وبأي نوع من اليقظة ينبغي أن يتحقق الراعي من ضعفاته اليومية خلال أدائه القويم لخدمة التعليم. ينبغي أن تتضح كل هذه الأمور أمام الراعي لئلا يفتقر إلى التواضع بعد الوصول إلى هذه الدرجة. إن طرق الحياة الآن تناهض تمامًا هذه الخدمة، فلقد ابتلع العلم حياة الاستقامة وبالغ الفكر البشري في تقديره.

لهذا وقبل كل شيء يجب أن يضع الخوف حدًا لاشتهاء الوصول إلى مثل هذه الرتب. أما إن نال الإنسان مثل هذه الدرجة دون أن يطلبها فلتكن حياته سببًا في تمجيدها، إذ من الضروري أيضًا أن تظهر استقامة الراعي في سلوكه عن طريق الوعظ والإرشاد.

أخيرًا ليس لي شيء أضيفه إلا أنه ينبغي أن نتحقق من ضعفاتنا الذاتية التي تحقر من قدر كل ما أنجزناه من أعمال حتى لا يؤدي زهو غرورنا إلى تجريد هذه الأعمال من قيمتها في أعين الديان غير المنظور.

ولأن كثيرين مثلي يفتقرون إلى الخبرة، غير عارفين كيف يقيمون قدر طاقاتهم، ومع ذلك يبتغون أن يقوموا بتعليم ما يجهلونه، الذين لا يقدرون أعباء السلطة بالقياس بعظمتها، لأنهم يجهلون كم هو جليل مقدارها. ليت هؤلاء يُزجرون ونحن في بداية هذا الكتاب، لأنهم وهم جهلة ومتهورون، يبتغون الاقتراب من قلعة التعليم. لذلك ينبغي أن يصد هؤلاء عن الإقدام بتهافتٍ وتهورٍ على هذه المغامرة ونحن على أعتاب هذا البحث.

الفصل الأول

لا يجسر أحد أن يقوم بتعليم أي فن من الفنون إلا إذا أتقنه بالتأمل والدراسة. إذًا كيف يندفع غير المتأهل، ويحمل واجبات الرعاية على عاتقه، وهو يعلم أن قيادة النفوس هي فن الفنون.

منْ منا لا يعرف أن جراح العقل هي أشد تأصلاً من جراح الجسد الداخلية. إن الذين يجهلون خواص العقاقير الطبية يخشون أن يعلنوا أنهم أطباء للجسد، ولكن مما يؤسف له أن الذين يجهلون المبادئ الروحية تمامًا لا يترددون في كثير من الأحيان في أن يدعوا أنهم أطباء للروح. ومع أن العناية الإلهية قد فرضت على أصحاب المسئوليات أن يلاحظوا الأمور الدينية، إلا أن البعض منهم يتوق إلى العظمة والتقدير باستعراض مظهري لسلطتهم داخل الكنيسة المقدسة. إنهم يرغبون في الظهور كمعلمين ويشتهون السيادة على الآخرين وفي ذلك يشهد الحق الإلهي: "**ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع. والتحيات في الأسواق**" (مت ٢٣: ٦-٧)

مثل هؤلاء الأشخاص هم أبعد ما يكونون عن الاستحقاق للقيام بأمانة ولياقة بالواجبات الرعوية، إذ يبلغ بهم الأمر أن يصيروا معلمين للتواضع بكلام كله كبرياء. ومن الواضح أنهم في مثل هذا التعليم لا ينطقون إلا بلغو باطل، إذ هم يعلمون بعكس ما يسلكون. على هؤلاء الرعاة يعلن الله غضبه على لسان النبي قائلاً: "**هم أقاموا ملوكًا وليس مني. أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف.**" (هوشع ٨: ٤). هؤلاء يحكمون برأيهم وليس بإرادة راعي الرعاة الأعظم. إنهم لا يستندون إلى أية فضيلة، فالله لم يدعوهم، لكنهم اندفعوا بجشعٍ إلى منصب الرعاية، وحقيقة الأمر أنهم لم يصلوا إليه لكنهم اغتصبوه.

إن الديان العادل ينكرهم ويتجاهلهم، لأن الذين يخفف عنهم التجارب والآلام في هذا العالم إنما هم في الحقيقة مرفوضون منه. لهذا يقول رب المجد لمثل هؤلاء حتى ولو قاموا بصنع المعجزات: "**لا أعرفكم من أين أنتم، تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم.**" (لو ١٣: ٢٧؛ مت ٧: ٢٣). إن صوت الحق الإلهي يوبخ جهالة مثل هؤلاء الرعاة قائلاً: "**وهم رعاة لا يعرفون الفهم.**" (إش ٥٦: ١١) مرة أخرى يؤنبهم الرب قائلاً: "**وأهل الشريعة لم يعرفوني**". (إر ٢: ٨) ولذلك يشكو الحق الإلهي من هؤلاء الرعاة لأنهم لم يعرفوه. لأنه لا أحد يفهم سمو خدمة القيادة إلا الذين عرفوه أما الذين يجهلون ما هو للرب يتجاهلهم الرب، كما يقول بولس الرسول: "**ولكن إن يجهل أحد فليجهل.**" (١ كو ١٤: ٣٨)

عدم استحقاق الراعي غالبًا ما يكون متلازمًا مع عدم استحقاق الرعية، فإذا كان الرعاة لا يملكون نور المعرفة نتيجة لخطيئتهم الشخصية فإنه تبعا لذلك تعثر الرعية بسبب جهلها حسب قصاص القضاء. من أجل ذلك قال رب المجد يسوع: "**إن كان أعمى يقود أعمي يسقطان كلاهما في حفرة.**" (مت ١٥: ١٤؛ لو ٦: ٣٩) وفي هذا قال صاحب المزامير متنبئًا: "**لتظلم عيونهم عن البصر وقلقل متونهم دائمًا.**" (مز ٦٩: ٢٣). إن القادة هم بالحقيقة عيون، إذ أنهم في واجهة أعلى الرتب وقد أخذوا على عاتقهم توضيح الطريق، أما الذين يتبعونهم فقد ارتبطوا بهم وعليه فهم يدعون "بالمتون". وهكذا عندما تظلم العيون، تنحني المتون أيضًا، لأنه عندما يفقد القادة نور المعرفة، ينوء الذين يتبعونهم تحت نير خطاياهم.

الفصل الثاني

عن الذين لم يختبروا في حياتهم ما تعلموه بالدراسة، على هؤلاء أن لا يقوموا بخدمة الرعاية

هناك من يفحصون الوصايا الروحية باجتهاد فكري ثابت لكنهم بسلوكهم يطئون على ما أدركوه بفهمهم. إنهم يسرعون إلى تلقين كل ما تعلموه من الدراسة وليس عن طريق حياتهم العملية. وبذلك يناقضون بسلوكهم ما يعلمونه بأفواههم.

وهكذا عندما يسير الراعي في الأماكن المنحدرة والوعرة، يتبعه القطيع فيسقط في وهدة الهلاك. ومن ثم يحزن الرب من معرفة الرعاة الرديئة، ويقول على لسان النبي: "**أهو صغير عندكم أن ترعوا المرعى الجيد وبقية مراعيكم تدوسونها بأرجلكم، وأن تشربوا من المياه العميقة والبقية تكدرونها بأقدامكم. وغنمي ترعى من دوس أقدامكم، وتشرب من كدر أرجلكم.**" (حزقيال ٣٤: ١٨-١٩).

ومن الواضح أنه عندما ينهل الرعاة من المياه الصافية والنقية، فإنهم يرتوون من سبيل الحق بفهمهم الصائب، ولكنهم يفسدون التأمل المقدس بحياتهم الشريرة عندما يكدروا المياه بأقدامهم. ومن البديهي أن الرعية ستشرب من هذه المياه الملوثة التي تعكرت من هذه الأقدام، ثم تمتنع عن تنفيذ التعاليم التي سمعتها، لأنها تتمثل بالقدوة الشريرة التي تراها. إن الرعية تتوق إلى فعل **الصالح** الذي يقوله الرعاة، ولكنها تنحرف من جراء **الشر** الذي يفعلونه، فتمتص الوحل مع ما تتجرعه إذ أنها تنهل من ينبوع ملوث.

لهذا كتب النبي قائلا إن الكهنة الأشرار قد صاروا فخا لهلاك الشعب: "**اسمعوا هذا أيها الكهنة!...لأن عليكم القضاء، إذ صرتم فخا**" (هو ٥:١)، "**النبي فخ صياد**" (هو ٨:٩) وأيضا يقول الرب بالنبي بخصوص الرعاة: "**وكانوا معثرة إثم لبيت إسرائيل.**" (حزقيال ٤٤: ١٢)

ليس هناك من يلحق الأذى بالكنيسة أكثر من أولئك الذين لهم صورة القداسة ولقبها ولكنهم يتصرفون تصرفًا فاسدًا. ومن الخطأ الفادح أن نعهد بمكانة الرعاية إلى شخصٍ مقصرٍ حيث أن الرعاية هي القدوة. إساءة اختيار الراعي ينتج عنه عواقب وخيمة، **إذ أنه وهو في الخطية، يأخذ كرامة من أجل هذه المكانة التي أخذها.** فليهرب كل إنسان غير مستحق من ثقل هذا الإثم العظيم وليتأمل مصغيا بأذني قلبه لهذا الصوت القائل: "**ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له أن يُعلق في عنقه حجر الرحى، ويغرق في لجة البحر.**" (مت ١٨: ٦، لو ١٧: ٢). هنا يرمز حجر الرحى إلى دوامة الحياة، وتشير لجة البحر إلى الهلاك الأبدي. إنه من الأفضل كثيرًا أن يهلك إنسان علماني بمفرده لبس ثوب القداسة صوريًا من أن يخلع هذا الإنسان على نفسه ثوب الرعاية ويُهلك الآخرين بقدوته الشريرة. وإني على يقين من أن عقاب الجحيم سيكون أخف وطأة لو سقط هذا الإنسان فيه بمفرده دون أن يكون سببًا في سقوط آخرين معه.

الفصل الثالث

أعباء الرعاية
عدم الاهتمام بالشدائد . الحذر من غرور النجاح

قلنا هذا باختصار لنُظهر كثرة أعباء الرعاية، لئلا يندس غير المستحق لهذه الخدمة المقدسة فيستعلي بدافع الرغبة في المجد، فيقوده هذا إلى الهلاك. من أجل هذا يقول يعقوب في محبة أبوية، محذرًا: "**لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتي**". (يع ٣: ١)

لأجل هذا فإن يسوع المسيح الوسيط بين الله والناس، الفائق المعرفة والسامي في الفهم على كل الأرواح السمائية، والذي يحكم في السماء منذ الأزل، قد هرب من قبوله مملكة أرضية، لأنه مكتوب عنه: "**أما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا، انصرف أيضًا إلى الجبل وحده.**"(يو ٦: ١٥) من منا يستطيع أن يملك تمامًا على الناس بلا لوم مثل هذا الذي يدبر رعيته التي خلقها بذاته!

لكن يسوع أتى في الجسد ليس فقط لكي يخلصنا بآلامه، بل ويعلمنا أيضًا بحياته، مقدمًا مثالاً للذين يتبعونه. لذلك رفض المُلك وارتضى أن يذهب بإرادته إلى خشبة الصليب. هكذا هرب من المجد العظيم الذي قُدم له، واختار ألم الموت وذله، لكي يشترك معه **أعضاء جسده** في الهروب من مجد العالم، وليتعلموا عدم الخوف من الشدائد وحب الضيقات من أجل الحق، والحذر من غرور النجاح. **لأن النجاح غالبًا ما يدنس القلب بالمجد الباطل، أما الضيقات فتنقيه بالأحزان.**

في النجاح ينتفخ العقل، وفي الضيقات تخمد نار العظمة.

في النجاح يتناسى الإنسان حقيقة نفسه، وفي الضيقات يعود الإنسان ولو مرغمًا إلى نفسه ليعرف حقيقتها.

في النجاح تحسب كل الأعمال الخيرة السابقة وكأنها كلا شيء، أما في الضيقات فتذوب كل الذنوب حتى المزمن منها. ومعلوم لدينا من خبرتنا العامة أنه في مدرسة الشدائد يضطر القلب إلى ضبط نفسه بنفسه. وعلى العكس عندما يبلغ المرء مركزًا عاليًا فإنه على التو يتغير القلب ويتعظم.

هكذا أدرك **شاول** في أول الأمر أنه غير مستحق، فهرب من أمجاد المُلك لكن بعد أن تولاه انتفخ بالكبرياء (١ صم)، فتركه صموئيل وتخلى عنه، لأنه اشتهى مجد الناس ورضاهم.

وأيضًا **داود** الذي كان مقبولاً في كل أعماله أمام الله الذي اختاره، بمجرد تحرره من التزاماته انطلق في أوهامه... فقتل الرجل[1] (أوريا الحثي)! وضعف بالزنا إذ اشتهى المرأة (٢ صم ١١: ٢٠).

تعلم يا أخي من داود الذي بعطفه أبقى على حياة الشرير شاول، ولكنه بعد أن ملك لم يتردد في قتل البار أوريا الحثي. **حقًا لقد رفض أولا أن يقتل الشرير الذي طالما اضطهده، لكنه بعد أن ملك قتل قائده المخلص.** هذا الإثم كان سيزيحه من جماعة المختارين لولا آلام التوبة التي أعادته إلى حظيرة الغفران.

---

[1] قارن مع (١ مل ١٠: ٢١-٢٣، ١٥. ١٧، ٣٠).

الفصل الرابع

الانشغال بأمور الرعاية الكثيرة يشتت تركيز العقل

عندما ينشغل الراعي بأعباء الرعاية، غالبًا ما تتملكه الحيرة من تعدد مسئولياته. فعندما يتشتت فكره في اهتمامات كثيرة وينشغل بها يجد نفسه ليس أهلاً لأي واحدة منها. لذلك ينبهنا يشوع بن سيراخ محذرًا: "**يا بني لا تكن أعمالك في أشياء كثيرة.** " (يشوع بن سيراخ ١١: ١٠) لا يستطيع العقل أن ينحصر في متابعة شيء ما إذا كان مشتتًا بين أمورٍ كثيرةٍ، وعليه فإذا انشغل في البحث عن اهتمامات دخيلة عليه ففي الواقع يفقد اهتمامه الثابت بباطنه. ومن العجيب أن يعرف العقل كيف ينظم الأمور الخارجية ويوزع اهتماماته بين كثير منها في حين يجهل حقيقة ذاته. فعندما ينشغل بالأمور الخارجية فوق ما ينبغي يصبح كأنه في رحلة طويلة انهمك فيها فنسي هدفها. مثل هذا العقل يكون بعيدًا كل البعد عن فحص الذات حتى أنه لا يشعر بما يقاسيه من أذى، وما يرتكبه من أخطاءٍ جسيمةٍ.

لم يتحقق حزقيا الملك أنه أخطأ حين كشف للغرباء الذين أتوا إليه ذخائر بيته من ذهبٍ وفضةٍ، وإذ ظن أنه فعل حسنًا وقع تحت غضب الديان، وعوقب كل أبنائه الذين خرجوا من صلبه (إش ٣٩: ١– ٧).

وهكذا عندما يكون لدى الراعي إمكانيات وفيرة، غالبًا ما يقوم بأعمال تعجب الرعية لمجرد صنعها، الأمر الذي يؤدي به إلى انتفاخ عقله بأوهامٍ تثير غضب الديان، مع أنه لم يصدر عن هذا الراعي في الظاهر أي فعل شرير. **لكن الذي يدين والذي يَدان يعرفان ما في الباطن.** فعندما نصنع التعدي في قلوبنا لا يعرف الناس عن ذلك شيئًا، لكن الديان يكون شاهدًا على آثامنا.

لم يكن ملك بابل متكبرًا لأنه تفوه فقط بأقوال التشامخ، فلقد سمع من فم النبي حكم الرفض قبل أن يبوح بكبريائه. وقد تنقى حقًا من خطية الكبرياء عندما اعترف أمام كل الشعب بالله الواحد الجبار الذي أغضبه. ثم بعد ذلك إذ ارتفع بازدهار قوته وسُر بعظمة ما حققه، تعالى بغروره الذاتي على كل الآخرين، وقال منتفخا بالكبرياء: "**أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي؟**" (دا ٤: ٣٠) وهكذا وقع تحت طائلة الغضب الإلهي الذي أثاره كبرياؤه الكامن في داخل نفسه، لأن الديان العادل أولاً يرى ما في الخفاء ثم يوبخ علانية، لذلك حوله الله إلى حيوان أبكم وعزله عن مجتمع الإنسان وأسكنه مع الوحوش بعد أن سلبه عقله. **إن من يرفع ذاته فوق كل الناس يفقد إنسانيته حسب عدالة الحكم ووضوحه.**

وإننا إذ نورد هذه الأمثلة لا نلقي اليأس في قلوب المقبلين على هذه الخدمة، بل نحصن القلوب البسيطة من اشتهائها، لئلا يتجرأ الفاسدون فيغتصبون الرتب السامية، ويحاول الذين يتعثرون في الأراضي السهلة أن يتسلقوا الوهاد والقفار.

الفصل الخامس

عن أصحاب الرتب السامية الذين يمكنهم إفادة الآخرين عن طريق الإقتداء بفضائلهم، لكنهم يهربون من الخدمة لأجل سلامهم الشخصي

يوجد من الناس من أُعطوا فضائل سامية وتميزوا بمواهب عظيمة لتدريب الآخرين، هؤلاء الذين لم يتدنسوا في حبهم للطهارة، وتقووا بالعفة، وشبعوا بطعام المعرفة، وتواضعوا بصبرٍ، مقاسين آلامًا كثيرة، ثابتين في حصنهم الروحي، مترفقين بنعمة الحب العطوف، أشداء غير متهاونين في العدالة. هؤلاء برفضهم المراكز الرعوية السامية عندما يدعون إليها، غالبًا ما يحرمون أنفسهم من هذه المواهب التي نالوها، لا لأنفسهم فقط، بل ومن أجل الآخرين أيضًا.

إذا نظر هؤلاء إلى مصلحتهم الشخصية، لا إلى فائدة الآخرين، يفقدون مثل هذه الميزات النافعة رغبة منهم في الاحتفاظ بها لأنفسهم فقط. لذلك قال الحق الإلهي لتلاميذه: "**لا يمكن أن تُخفي مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذي في البيت.**" (مت ٥: ١٤) ولذلك قال رب المجد أيضًا لبطرس: "**يا سمعان بن يونا أتحبني؟**" وللوقت عندما أجابه سمعان أنه يحبه أخبره يسوع قائلاً: "**ارعَ غنمي.**" (يو ٢١: ١٧)

إن كانت خدمة الرعاية هي إعلان عن الحب، فإن الذين يرفضون رعاية قطيع الرب وقد اشتملوا بالفضائل يوصمون بعدم حبهم لراعي الرعاة الأعظم. لذلك قال بولس الرسول: "**إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذا ماتوا. وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام**". (٢ كو ٥: ١٤-١٥) وهكذا قال موسى أن يأخذ الأخ الذي على قيد الحياة زوجة أخيه الذي مات بغير نسل ويقيم نسلاً لأخيه، فإن رفض أن يأخذها تبصق في وجهه ويخلع الولي أحد نعليه ويدعون بيته ببيت مخلوع النعل (تث ٢٥: ٥-١٠؛ را ٤: ١-١١).

يسوع هو **أخونا** الذي مات وقال بعد ما ظهر في مجد القيامة: "**اذهبا قولا لإخوتي**" (مت ٢٨: ١٠). مات المسيح، ولكن لم يكتمل بعد عدد البنين المختارين. وكما كان الأخ يأخذ امرأة أخيه الميت، هكذا فمن الصالح أن تُسند رعاية الكنيسة المقدسة إلى أصلح الناس لكي ما يدبرها حسنًا. فإذا لم يقبل فإن العروس زوجة الأخ تبصق في وجهه، لأن كل من لا يعني بمساعدة الآخرين بما له من مواهب، فإن الكنيسة المقدسة ترفضه أيضًا، وتخلع أحد نعليه، فيدعي بيته بيت مخلوع النعل، لأنه مكتوب: "**وحاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام.**" (أف ٦: ١٥)

لذلك إذا اعتنينا برعاية الإخوة ألآخرين كما بأنفسنا، فإننا نحذي قدمينا ونحميها. أما الذي يفكر فقط في منفعته الخاصة، متناسيًا منفعة الآخرين، يخلع أحد نعليه بعارٍ. وهكذا يوجد كما قلنا أناس أُعطوا مواهب عظيمة، لكنهم من أجل حبهم للتفرغ ومتابعة التأمل يرفضون خدمة الآخرين بالوعظ والإرشاد، ويحبون أن يعتزلوا في هدوء، راغبين الوحدة بغرض التأمل. والآن إن حكمنا على سلوكهم بدقة فإننا نجدهم بالتأكيد مقصرين في حق خدمة الشعب التي هم قادرين على إقامتها. إذًا بأي ضمير يفضل ذو المواهب خلوته الخاصة على منفعة الآخرين، بينما هو يعلم أن الابن الوحيد الذي للآب العالي قد نزل من حضن أبيه إلى وسطنا ليصنع خلاصًا لكثيرين.

الفصل السادس

الذين يهربون من أعباء الرعاية بسبب التواضع،
يكونون بالحقيقة متواضعين عندما لا يقاومون الدعوة الإلهية

يهرب بعض الناس من أعباء الرعاية بسبب التواضع الحقيقي، إذ أنهم لا يشعرون بأفضليتهم عن غيرهم، بل يعتبرون أنفسهم أقل الجميع. وتواضعهم هذا يكون حقيقيًا في عيني الرب عندما يكون متحليًا بفضائل أخري، فلا يكون هذا التواضع سببًا لرفضهم القيام بما يمكن تأديته على خير وجه. **إن الذي يعلم أن إرادة العلي قد أقامته راعيًا ومع ذلك يرفض هذه الإرادة لا يكون بالحقيقة متواضعًا.** لكن إن وُضعت عليه أعباء الرعاية وله من المواهب ما يستطيع بها أن ينفع الآخرين، فعليه أن يخضع لأوامر الله ويبتعد عن خطية العناد ويهرب منها بقلبه ويقدم ذبيحة الطاعة حتى ولو كانت ضد رغبته[1].

[1] في هذا يصف القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات موقفه حائرًا بين أمرين: بين خوفه من مسئولية الرعاية وبين عصيانه للدعوة الإلهية بالهروب فيقول: "ولكي نميز بوضوح بين الموقفين نقول أنه من جهة الخوف من هذه الخدمة، فإن لنا ملاذًا في ناموس الطاعة، إذ أن الله بصلاحه ينظر إلي إيماننا ويجعل من الذين يتكلون عليه ويضعون فيه كل آمالهم رعاة مكملين. لكني لا أعرف شيئًا يلجأ إليه الإنسان في حالة عصيانه للدعوة... أخشي أن يسمع ذلك الإنسان هذا الصوت: "أما دمه فمن يدك أطلبه" (حز ٣: ١٨).

الفصل السابع

يمتدح بعض الناس الذين يشتهون خدمة التعليم، وبنفس المقدار يمتدح البعض الآخر الذين يُدفعون إليها مجبرين

يشتهي بعض الناس أحيانًا منصب المعلم، ويُمتدحون على ذلك. والبعض الآخر يدفعون إليه مجبرين، ويمتدحون أيضًا على ذلك بنفس المقدار. ويظهر هذا بوضوح عندما نتأمل حالة نبيين أحدهما تقدم من تلقاء ذاته لرسالة التعليم بينما كان الآخر يمانع عن خوف. فمثلاً عندما سأل الرب عن من يرسله تقدم إشعياء باختياره قائلاً: "**هأنذا أرسلني.**" (إش ٦: ٨) وعلى العكس كان إرميا يمانع بوداعة في أن يجبر على الذهاب قائلاً: "**آه يا سيد الرب، إني لا أعرف أن أتكلم، لأني ولد**". (إر ١: ٦)

تأمل كيف صدر عن هذين النبيين قولان مختلفان مع أن هذين القولين لم ينبعثا عن ينابيع حب مختلفة. فيوجد وجهان لناموس الحب، واحد منهما مبني على **حب الله**، والآخر على **حب القريب**. أراد إشعياء الحياة العاملة في خدمة التعليم، يدفعه إلى ذلك رغبته في إفادة إخوته. أما إرميا فقد اشتهي أن يلتصق بحب جابله في حياة التأمل. **إن الأمر الذي سعي إليه الواحد هرب منه الآخر**. فواحد يخشى لئلا يفقد بالتعليم فوائد التأمل الهادئ والآخر يخشى نتيجة لعدم التعليم أن يصيبه الأذى لقلة العمل المتواصل.

والآن لنفهم جيدًا في كلتا الحالتين أن الذي مانع لم يقاوم تمامًا، والذي قبل الرسالة قد تطهر قبلاً بجمرة من على المذبح (إش ٦: ٦). إن الذين لم يتطهروا لا يحق لهم أن يقوموا بهذه الخدمة المقدسة. والذين قد تطهروا بالنعمة الإلهية عليهم ألا يقاوموا الدعوة بعناد تحت ستار التواضع.

وحيث أنه من الصعب أن يعرف الإنسان ما إذا كان قد تطهر أو لم يتم تطهيره بعد فمن الأفضل له أن يرفض خدمة التعليم، لكن كما قلت لا يحق أن يرفض بإصرار إذا أُعلنت الإرادة الإلهية التي يجب أن تنفذ.

التزم موسي بالأمرين السابقين؛ فبينما لم يقبل رعاية جمعٍ غفيرٍ إلا أنه قد أطاع، لأنه سيكون حتمًا متكبرًا لو تعهد قيادة هذا الشعب الغير محصى بغير خوفٍ، كما أنه سيكون أيضًا متكبرًا لو أنه رفض أمر الخالق، **ومن ثم كان متواضعًا في كلتا الحالتين، وفي كليهما كان مطيعًا**؛ أعني في عدم رغبته في حكم الشعب ناظرًا إلى نفسه فقط، وفي قبوله الحكم معتمدًا على قوة الله الذي دعاه.

ليفهم إذًا المندفعون، من مثل هذه الأمثلة كم يعظم ذنبهم، إن هم اندفعوا وراء رغباتهم الشخصية ولم يرهبوا خدمة الرعاية، بينما يرون قديسي الله يرفضون قبول رعاية الشعب، وقد دعاهم الله نفسه.

لقد ارتعب موسي مع أن الله كان يشجعه وبالرغم من كل ذلك يركض ضعفاء الناس وراء هذه الخدمة. **ومما يدعو للعجب أن الذين هم على وشك السقوط تحت ثقل أعمالهم، يعملون على إغراق أنفسهم بوضع أعمال الآخرين على أكتافهم! والذين قد وهنوا تحت حمل أعبائهم يضيفون إلى أعبائهم أحمالاً أخرى!**

الفصل الثامن

عن الذين يشتهون الرفعة
ويحورون آية الرسول لتخدم جشعهم

يحدث كثيرًا، أن الذين يشتهون الرفعة يطلبون سندًا لجشعهم، فيستغلون آية الرسول القائلة: "**إن ابتغى أحد الأسقفية فيشتهى عملاً صالحًا**". (١ تي ٣: ١) فبينما يمتدح الرسول هذه الرغبة نجد أنه على الفور يشترط معها شروطًا تبعث فينا الرهبة، عندما يقول في حزم: "**فيجب أن يكون الأسقف بلا لوم**". (١ تي ٣: ٢)

وإذ يسترسل في إحصاء الفضائل الضرورية، فإنه يشرح معنى كلمة "**بلا لوم**". فبينما يقوي هذه الرغبة إلا أنه يحذر الراغبين ويوصيهم وكأنه يعلن قائلاً: "إنني أمتدح ما تبتغونه، لكن يجب أن تتأهلوا أولاً لهذه الخدمة، لئلا إذا أهملتم الاهتمام بلياقتكم الروحية تصيرون مبغضين وملامين أكثر، لأنه في هذا تهرولون لكي تظهروا أمام الجميع على ذروة الشرف.

إن بولس معلم فن الرعاية العظيم يشجع رعاياه بتعزيز رغبتهم ثم يثنيهم، ملقيًا في قلوبهم الرهبة، حتى يجنب سامعيه الكبرياء، وبمدحه ابتغاء خدمة الأسقفية يدفعهم إلى سلوك حياة الأسقف المنشودة.

ومع ذلك علينا أن نلاحظ أنه قال هذا في وقت كان يُساق فيه كل من أقيم على رعاية الشعب إلى عذابات الشهادة. لذلك كان كل من يبتغى الأسقفية يستحق بالحقيقة المديح، إذ أنه لم يكن هناك أدنى شك في أن الأسقف سيصادف في خدمته أقصى الضيقات. لهذا السبب كانت خدمة الأسقف تعتبر عملاً صالحًا عندما قيل: "**إن ابتغى أحد الأسقفية فيشتهى عملاً صالحًا**".

لذلك إن اشتهى أحد الأسقفية . لا سعيًا وراء خدمة الأعمال الصالحة . بل وراء مجد هذه الرتبة فإنه يقيم الشهادة ضد نفسه، وهو لا يفشل فقط في أن يرغم نفسه على حب هذه الخدمة، بل يكون أيضًا جاهلاً بها، إذا هو سعى وراء السيادة الرعوية، ومنى نفسه بإخضاع الآخرين في هواجس فكره الخفية، وتلذذ بسماع مديحه، وشعر وكأن قلبه انتفخ بالمجد، وفرح لوفرة الثروة وترف العين. إن هذا الإنسان إنما يسعى وراء أمجاد العالم تحت ستار كرامة الخدمة التي كان ينبغي أن تتحطم عندها هذه الأمجاد العالمية، وعندما يفكر العقل في اغتصاب هذه الأسقفية التي هي أقصى درجات التواضع لكي ينمي كبرياءه، فإنه يفسد أهم الخواص الداخلية (أيّ التواضع) بسبب ما يشتهيه خارجيًا (أيّ الأسقفية).

الفصل التاسع

الذين يسعون وراء الرفعة
يخدعون أنفسهم في أغلب الأحيان بوعود وهمية للقيام بأعمال صالحة

كثيرًا ما يضع الذين يرغبون في خدمة التعليم الرعوي نصب أعينهم القيام بأعمال صالحة معينة. ومع أنهم يسعون إليها لخدمة كبريائهم إلا أنهم **يتوهمون** أنهم سيصنعون أعمالاً عظيمة، لأن الدوافع الكامنة في أعماقهم شيء، وما يظهر علانية في عقلهم الواعي هو شيء آخر. وغالبا ما يخدع العقل ذاته بأوهام وتخيلات ويبدو وكأنه يحب الأعمال الصالحة، بينما هو في الحقيقة يمقتها، ويتراءى وكأنه يزهد الأمجاد الدنيوية بينما هو في الحقيقة يشتهيها. وبينما يتوق العقل إلى موقع القيادة فإن الخجل يعتريه أثناء سعيه، ولكن حالما يقتنيها يصبح جسورًا، وفي أثناء التقدم إليها يفزع خشية أن لا يصل إليها، ولكن حالما يقتنيها يعتقد على الفور أنه باستحقاق أخذها.

وعندما يتلذذ العقل بأساليب عالمية بمجد هذه الخدمة، يتخلى بإرادته عن أفكارها الروحية.

ما أحوج الإنسان عندما يحلق واهمًا في غير مستوياته العادية أن يرجع إلى نفسه، فينظر إلى أعماله السابقة عندما كان من أفراد الرعية وتحت سلطان. عندئذ يسأل نفسه على الفور، وقد صار راعيًا ذي سلطان، هل يستطيع إنجاز ما كان يقصد أن يفعله أم لا؟

حتمًا لا يقدر الإنسان أن يتعلم التواضع وهو في موضع الرئاسة إذا لم يكن قد أمسك عن الكبرياء عندما كان مرؤوسًا. والذي يلهث وراء المديح وهو بعيد عنه لا يعرف كيف يصده وهو قريب منه. كما أن الذي لم تكفه موارده، وهو يعول نفسه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحقق له الكفاية وهو يعول كثيرين. لذلك ليحاول كل إنسانٍ أن يكتشف من ماضيه، أيّ نوع من الناس هو، حتى لا تخدعه هواجس فكره عندما يلتمس الرفعة.

لكن **غالبًا ما يهجر الإنسان الأعمال الصالحة التي كان يعملها قبل انشغاله بالخدمة.**

إن القبطان الذي يفتقر إلى المهارة يستطيع أن يقود السفينة في بحر هادئ، لكن **في وسط البحر المضطرب بالأمواج العاصفة ينزعج حتى أمهر القباطنة.** وما السلطة التي للمناصب السامية إلا عاصفة تهب على العقل حيث تهتز سفينة القلب على الدوام بأعاصير الأفكار وتندفع هنا وهناك بغير توقف، حتى تسقط في التعدي بالقول والفعل، فتتحطم عند اصطدامها بالصخور.

أيّ طريق نسلكه إذًا؟ وأيّ مسلك نتخذه في وسط هذه المخاطر إن لم يتعهد **أصحاب الفضيلة** خدمة الرعاية ولو مجبرين، ويبتعد الذين **تعوزهم الفضيلة** عن الرعاية ولو مرغمين أيضًا. أما بالنسبة للأول فليحذر لئلا برفضه هذه الرتبة بإصرار أن يكون مثل من أخفي الوزنات التي أعطيت له في منديل وهو لأجل ذلك يُدان (مت ٢٥:١٨). إنه إذا أخفي هذه الوزنات، يلقي بها في غفلة وبلادة قلب. أما الذي يشتهى الرعاية ولا يستحقها فليحذر لئلا . بقدوته الشريرة متشبها بالفريسيين . يكون مثل حجر عثرة للذين يجاهدون لدخول ملكوت السماوات. هؤلاء كما يقول عنهم السيد المسيح: "**لا تدخلون أنتم، ولا يدعون الداخلين يدخلون**" (مت ٢٣: ١٣).

ليدرك الشخص الذي اختير أسقفًا أنه باختياره هذا يكون قد أخذ على نفسه الاهتمام بالرعية، فيكون كالطبيب بالنسبة للمريض، لذلك إن كانت أوجاعه لا تزال حية في جسده، فبأية جسارة إذا يسرع ليخدم المتألمين،

بينما هو يحمل قرحه على جبينه!

الفصل العاشر

من هم الذين ينبغي أن يُدعوا للرعاية؟

ينبغي أن يكون المدعو للرعاية مثالاً في حياته، يميت أهواء جسده، سالكًا منذ لحظة دعوته في الحياة الروحية، تاركًا وراءه أمجاد العالم، لا يهاب الضيقات، بل يشتهي الغنى الداخلي. كما ينبغي ألا يكون ذا جسد شرير يعطله عن الوصول إلى أهدافه. فلا يشتهى جسده ضد ما تهدف إليه نفسه، ولا تتمرد روحه على هذه الأهداف.

لا يشتهى ما للآخرين بل يعطى مما له بسخاء، وقلبه العطوف يجعله يغفر سريعًا، وهو لا يحيد عن الصواب فلا يغفر ما لا ينبغي أن يغتفر، وفي نفس الوقت يحزن على تعديات الآخرين، كأنه قد ارتكبها. وبقلبه العطوف يرق لضعفاتهم، ويفرح إذا كانت أعمال رعيته صالحة، كما لو كان قد تقدم هو في الصلاح ونما.

ويكون في كل أعماله قدوة تلهم الآخرين حتى لا يوجد ما يشين سلوكه في نظرهم. وعليه أن يقيم حياته بحيث يستطيع أن يروي جفاف القلوب من نبع التعاليم. فبممارساته واختباراته العملية في الصلاة قد تعلم أن يأخذ من الرب كل ما يطلبه. وكأنه قد قيل له خصيصًا بصوت التجربة: "**تستغيث فيقول: هأنذا**". **(إش ٥٨: ٩)**

فإذا حدث أن تقدم إلينا شخص أخطأ في حق إنسانٍ عظيمٍ لا نعرفه راجيًا منا أن نشفع فيه لديه، فإننا سنجيب في الحال بأننا لا نستطيع أن نتشفع له، لأنه لا تربطنا بهذا الرجل العظيم معرفة.

فإذا كان هذا قد استحى أن يشفع عند إنسان لا يعرفه، فكم وكم تكون جسارة ذاك الذي يتقدم ليشفع للشعب أمام الله دون أن يتأكد أنه يتمتع بنعمة معرفة الله؟ **أو كيف يسأل من أجل مغفرة الآخرين، وهو لا يعرف إن كان قد تصالح هو مع الله أم لا؟**

بقي في هذا الموضوع سبب آخر يستدعي الخوف، وهو أن هؤلاء الذين اؤتمنوا على تهدئة غضب الله قد يثيرون غضب أله بأفعالهم الأثيمة. فكلنا يعلم جيدًا أنه إذا أرسلنا إنسانًا مرفوضًا ليشفع فينا، فإن غضب الله الذي أخطأنا في حقه يزداد حموه. لذلك فليحذر كل المقيدين بشهوات العالم بينما يتلذذون بأمجاد هذه الرتبة من أن يثيروا غضب الديان العادل وبذلك يكتبوا الدمار لشعبهم.

الفصل الحادي عشر[1]

من هم الذين ينبغي أن يبتعدوا عن مسئولية الرعاية؟

ليعرف الإنسان إذا قدر نفسه حتى لا يتجرأ أحد فيأخذ لنفسه منصب الرعاية، بينما لا تزال الرذيلة تسيطر عليه، وتتسبب في إدانته. **فإن الذي أفسدته الآثام لا يجب أن يشفع من أجل آثام الآخرين.**

لذلك قال الصوت الإلهي لموسى: "**كلم هارون قائلاً: إذا كان رجل في نسلك من أجيالهم فيه عيب فلا يتقدم ليقرب خبز إلهه. لأن كل رجل فيه عيب لا يتقدم. لا رجل أعمى ولا أعرج ولا أفطس ولا زوائدي ولا رجل فيه كسر رجل أو كسر يد ولا أحدب ولا أكشم ولا من في عينه بياض ولا أجرب ولا أكلف ولا مرضوض الخصي**". (لاويين ٢١: ١٧-٢٠)

الأعمى

الأعمى هو الذي لا يعرف ضياء التأمل السماوي. فالذي أدركته ظلمة هذا العالم الحاضر لا يستطيع أن يدرك نور الحياة الآتية حيث أنه لا يشتاق إليها. وهو لا يعرف أين يخطو أو إلى أين يمضى ولذلك قالت حنة النبية: "**أرجل أتقيائه يحرس، والأشرار في الظلام يصمتون**". (١ صم ٢: ٩)

الأعرج

والأعرج هو الذي يعرف حقًا الطريق، لكنه لا يستطيع أن يسير فيه بثبات بسبب نفسه العليلة، وهو لا يستطيع أن يرتفع بعاداته القبيحة إلى مستوى الفضيلة. إنه لا يملك القوة ليسلك تبعًا لإرادته.

لذلك قال القديس بولس الرسول: "**لذلك قوّموا الأيادي المسترخية والركب المخلعة، واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة، لكي لا يعتسف الأعرج، بل بالحري يشفي**". (عب ١٢: ١٢-١٣)

الأفطس

الأفطس هو الذي يعجز عن التمييز، فنحن نميز بحاسة الشم الروائح الذكية من العفنة. تشير هذه الحاسة حقًا لحاسة التمييز التي بها نختار الفضيلة ونرفض الرذيلة. لذلك قيل في مدح الكنيسة العروس: "**أنفك كبرج لبنان**" (نش ٧: ٤). بالتمييز تدرك الكنيسة المقدسة تماما التجارب التي تعصف بها لأسبابٍ متنوعةٍ، وتعرف مقدمًا . من فوق **برجها** . معارك الشر المزمعة أن تحدث.

الزوائدي

ينشغل بعض الناس دائمًا بأسئلة فضولية أكثر من اللازم، وهم لا يعترفون أنهم أغبياء، ولكنهم يفرطون في الثقة بأنفسهم، لذلك أضاف الكتاب قائلاً: "**ولا زوائدى**". ومن الواضح أن الأنف الكبير المنحنى؟ يعبر عن إفراط في التمييز وهذا الإفراط يشوه كمال هذه الحاسة وجمالها.

كسر الرجل وكسر اليد

الذي فيه كسر رجل وكسر يد هو الذي لا يستطيع مطلقًا أن يسير في طريق الله، وقد تجرد تمامًا من

---

[1] يتناول هذا الفصل الحادي عشر إحدى عشر عيبًا، ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا عن عمدٍ أم لا.

نصيبه في الأعمال الصالحة. في هذا يختلف عن الأعرج الذي يمكنه . ولو بصعوبة . الاشتراك في الأعمال الصالحة، أما المكسور فقد تجرد منها تمامًا.

الأحدب

الأحدب هو الذي يرزح تحت ثقل الهموم العالمية، فلا يمكنه أن يرفع عينيه إلى ما هو فوق، بل يثبتها على موطئ الأقدام حيث توجد أدنى الأشياء. وهو إن سمع أخبارًا سارة عن مسكن الآب السماوي فإنه . تحت ثقل عاداته الشريرة . لا يستطيع أن يرفع محيا قلبه ولا يستطيع حتى أن يرتفع بفكره الذي قيدته الهموم العالمية إلى الأرض. هذا الإنسان يقول عنه داود النبي المرتل: "**لويت انحنيت إلى الغاية**". (مز ٣٨: ٦) ويقول يسوع الإله المتجسد عن هؤلاء رافضًا آثامهم: "**والذي سقط بين الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون من هموم الحياة وغناها ولذاتها ولا ينضجون ثمرًا**". (لو ٨: ١٤)

الأكشم

أما الأكشم أو من على عينيه غشاوة فهو الذي بنظرته الطبيعية يضيء بمعرفة الحق، لكن عينيه قد اظلمتا بالأعمال الجسدية. فالعين التي عليها غشاوة تكون حدقتها سليمة لكن الجفون تضعف وتنتفخ بسبب الافرازات، وتذبل بسبب سيل الدموع، فتضعف حدقة العين. تضعف بصيرة البعض بسبب الحياة الجسدية. هؤلاء كان لهم القدرة على تمييز الخير، لكن بصيرتهم أظلمت بسبب اعتيادهم فعل الإثم. الذي على عينيه غشاوة هو الذي كان له بالفطرة فطنة الحواس، لكنه شوهها بحياته الفاسدة. لمثل هذا يقول الملاك: "**كحل عينيك بكحل لكي تبصر**". (رؤ ٣: ١٨) إن كحلنا عيوننا بكحل لنبصر، فإن عيون أفهامنا تتقوى بأدوية الأعمال الصالحة لتبصر بريق النور الحقيقي.

من في عينه بياض

أما الذي في عينه بياض فهو الذي حُرم من معاينة النور الحقيقي بسبب عماه مدفوعًا بادعاء الحكمة والصلاح. حدقة العين تبصر إن كانت سوداء، لكن أن كان بها بياض فهي لا تبصر شيئًا. فمن الواضح أنه حينما يدرك الإنسان أنه أحمق وأثيم فإنه يفهم بقوى عقله مدى وهج الضياء الداخلي، لكنه إذ يعزي إلى نفسه إشراق الحكمة والصلاح، يحجز عنها ضياء المعرفة الفائق، أما بالنسبة لكبرياء مجده الذاتي فإنه يحاول بعبث أن يدرك بريق النور الإلهي، فقد قيل عن البعض: "**وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء**". (رو ١: ٢٢)

الأجرب

الإنسان الأجرب هو الذي يسود عليه بطر الجسد. ففي حالة الجرب تنتشر الحرارة الداخلية على الجلد وهذه الحالة تمثل الدعارة تمامًا. هكذا عندما يترجم إغراء القلب بالأفعال، فإننا نستطيع أن نقول إن الحرارة الداخلية تنتشر كما ينتشر الجرب على الجلد، أما الأذى الظاهر الذي يلحق بالجسد فإنه ينطبق على هذه الحقيقة. إنه كما أن الشهوة إذا لم نخضعها **في الفكر** فإنها تسود **بالفعل**، لذلك كان بولس مهتمًا بتطهيرها كما لو كانت جربًا على الجلد فقال: "**لم تصبكم تجربة إلا بشرية**"[1]. (١ كو ١٠: ١٣) وكأنه يريد أن يوضح أننا **كبشر**

[1] هنا يشجع بولس الرسول الكورنثيين ويضيف قائلاً: "ولكن أالله أمين، الذي لا يدعكم تُجربون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ، لتستطيعوا أن تحتملوا".

لا بد أن نعاني من تجارب الفكر، لكن إن تغلبت علينا أثناء حربنا معها واستقرت في قلوبنا يكون هذا من فعل **الشيطان.**

الأكلف

أما الأكلف فقد أتلف الطمع عقله، فإن لم يضبط هذا الطمع في الأمور الصغيرة سيسود على حياته كلها. إن الكلف يغزو الجسد، لكنه لا يسبب آلامًا، وينتشر على المريض دون أن يضايقه، لكنه يشوه جمال الأعضاء، وهكذا يملأ الطمع أيضًا عقل ضحيته بالسرور إلا أنه ينجسه. وإذ يضع أمام الفكر أشياء ليقتنيها فإنه يثيره بالبغضة والعداوة. أما أنه لا يسبب آلامًا فهذا لأنه يعد النفس العليلة بأشياء كثيرة ووفيرة ثمنًا للخطية. أما أن جمال الأعضاء يتشوه، فهذا لأن الجشع يشوه جمال الفضيلة. أيّ أن الجسد كله يفسد حقًا إذا ملأت الرذائل نفس الإنسان، لذلك يقول القديس بولس حقًا: "**لأن محبة المال أصل لكل الشرور**". **(١ تي ٦: ١٠)**

مرضوض الخصي

أما مرضوض الخصي، مع أنه لم يفعل النجاسة إلا أنه يرزح تحت نير التفكير الدائم فيها بإفراط، ومع أنه لا يتدنس أبدًا بالفعل إلا أن قلبه أفتتن بلهو الدعارة دون أيّ وخز للضمير. إن مرض ارتضاض الخصية يحدث نتيجة دخول سائل داخلاً في الخصية فيسبب مضايقات وتورم معيب. فمرضوض الخصي إذًا هو الذي يترك لفكره العنان في الأمور التي تحرك الشهوة، وبذلك يحمل في قلبه حملاً دنيئًا لا تستطيع نفسه أن تلقيه عنها وهو يفتقر في نفس الوقت إلى القوة ليرتفع بنفسه إلى التدرب العلني على الأعمال الصالحة حيث أنه يرزح تحت ثقل أعماله الفاضحة الخفية.

إذًا فليمتنع كل من به إحدى هذه العيوب التي سبق ذكرها عن تقديم خبز الرب لأنه لا يستطيع إنسان أن يشفع في ذنوب الآخرين مادامت نقائصه الشخصية تتملك عليه.

والآن إذ أوضحنا في هذه العجالة كيف ينبغي على الأكفاء أن يتعهدوا تدبير الرعاية وكيف ينبغي على غير الأكفاء أن يرتعبوا منها ويتجنبوها، فإننا سنوضح في الجزء الثاني كيف ينبغي أن يسلك الذين نالوا هذه الخدمة باستحقاق.

الجزء الثاني

حياة الراعي

الفصل الأول

السلوك الذي يجب أن يتحلى به الراعي

يبغى أن يسمو سلوك الأسقف على سلوك الرعية، كما ينبغي أن تتميز حياة الراعي عن حياة القطيع. فالذي يستحق أن يُدعى راعيًا يجب عليه أن يقدر كم هو ضروري بالنسبة له أن يحيا حياة صالحة لذلك عليه أن يكون:

- ❖ طاهر الفكر.
- ❖ قدوة في سلوكه.
- ❖ حكيمًا في صمته، نافعًا في كلامه.
- ❖ صديقًا عطوفًا لكل إنسان، متعمقًا في التأمل أكثر من الجميع.
- ❖ رفيقًا متواضعًا لمن يحيون حياة صالحة، ومتأهبًا لنصرة التقوى ضد تعديات الخطاة.
- ❖ غير مهملٍ للحياة الداخلية بسبب انشغاله بالحياة الخارجية ولا يكون مهملاً للحياة الخارجية في غمرة انشغاله بما هو للداخل.

ولنبدأ الآن بشرح هذه النقاط بالتفصيل بعد أن أوردناها بإيجاز في عناوين.

الفصل الثاني

ينبغي أن يكون الراعي طاهر الفكر

ينبغي أن يكون الراعي طاهر الفكر دائمًا لكي لا تستطيع الخطية أن تدنسه وهو الذي أخذ على عاتقه أن يعمل على تطهير قلوب الآخرين من الدنس، لأن اليد التي تريد أن تزيل القذارة عن الآخرين ينبغي أن تكون هي نفسها نظيفة، حتى لا تزيد من تلمسهم قذارة بما علق بها من أوساخ. يقول النبي: "**تطهروا يا حاملي آنية الرب**". (إش ٥٢: ١١) إن الذين يحملون آنية الرب هم الذين أخذوا على عاتقهم أن يجتذبوا نفوس الذين حولهم إلى النعيم الأبدي، معتمدين في ذلك على قدوتهم الصالحة.

لذلك فعلى المسئولين عن حمل هذه الآنية الحية إلى الهيكل الأبدي أن ينظروا باهتمامٍ إلى أي مدى يجب أن يتطهروا، لهذا السبب أمر الرب بأن تثبت صدرة القضاة بأربطة على صدر هارون، مشيرًا بذلك إلى أن قلب الكاهن لا ينبغي بأي حال أن تشغله أفكار دنسة. لكن ينبغي أن يتحكم العقل السليم في تفكيره، وعليه أن لا يتأمل في أفكار غير حكيمة ولا غير نافعة، وهو الذي يجب عليه، كقدوة للآخرين، أن يظهر بحياته المنضبطة ما هو عليه من رجاحة عقل.

ولقد ذكر بأكثر تدقيق أن أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر كانت تُكتب على صدرة القضاء. فإن حمل أسماء الآباء مكتوبة على الصدر باستمرار تجعل الكاهن دائم التفكير في حياة الآباء الأولين. عندئذ يسلك الكاهن بلا لوم في أثر خطوات الآباء القديسين الذين سبقوه متأملاً حياتهم، مبتعدًا عن الخيالات الباطلة، لئلا يخطو خطوة غير لائقة. وفضلاً عن ذلك، فصدرة القضاء قد صممت بهذه الطريقة، لأنه ينبغي على الراعي دائمًا أن يميز بين الخير والشر وأن يكون له القدرة على الفحص بتدقيق في كل ما هو مناسب في ذاته، ولمن ومتى يكون ذلك مناسبًا. ولأنه لا يجب على الراعي أن يبحث عن ما لنفسه بل أن ينظر إلى صالح رعيته أكثر من أية منفعة ذاتية، لذلك كتب في هذا الشأن: "**وتجعل في صدرة القضاء الأوريم والتميم، لتكون على قلب هرون عند دخوله أمام الرب، فيحمل هرون قضاء بني إسرائيل على قلبه أمام الرب دائمًا**[١]". (خر ٢٨: ٣٠) إن حمل الكاهن لقضاء بني إسرائيل على صدره في حضرة الرب يعني أنه يفحص أحوال رعيته طبقًا لفكر الديان العادل، ولا يسمح لأي فكر جسدي بالتدخل فيما يقوله في بيت الله، لئلا تجعله الأحقاد الشخصية يقسو في الإصلاح. وبينما يظهر الراعي تحمسه ضد تعديات الآخرين يجب أن يعاقب نفسه على أخطائه الشخصية، حتى لا تُفسد إرادته الشريرة نزاهة حكمه، أو تشوهه سرعة الغضب.

وعندما يفكر الراعي في الرهبة التي تنبعث فينا من قبل ذلك الذي يحكم كل المخلوقات، الذي هو الديان الأعظم، لا يملك إلا أن يشعر بالخوف وهو يحكم الرعية. وبينما تعمل هذه الرهبة على حفظ فكر الراعي متواضعًا، فهي في الوقت نفسه تطهره، حتى لا يُصاب بالكبرياء الروحي أو يفسد باللذات الجسدية أو تطغي عليه الأفكار الشريرة بسبب حبه للأشياء الأرضية. ورغم هذا فإن هذه الشرور يجب أن لا تجد سبيلاً للوصول إلى ذهن الراعي، بل يجب عليه أن يسارع بطردها والانتصار عليها. وأن لا يدع الخطية تقهره بإغرائه بمسراتها ولذاتها. فتوجه إليه ضربة قاضية بسبب تهاونه في صدها.

---

[١] "الأوريم والتميم": هي اسم لعادة يهودية قديمة لطلب مشورة الإرادة الإلهية وهي مرتبطة أيضا بالأحجار الكريمة الإثني عشر التي تشير إلى أسباط إسرائيل والتي ترصع صدرة القضاء.

الفصل الثالث

يجب أن يكون الراعي قدوة في سلوكه

يجب أن يكون الراعي قدوة في سلوكه حتى يعلم رعيته بحياته الشخصية كيف ينبغي أن يسلكوا، فعندما يتبع قطيع الغنم إرشادات الراعي وتوجيهاته يسير إلى الأفضل عن طريق القدوة، وليس عن طريق الكلام. لأن الإنسان الذي يدعو الآخرين (بحكم عمله) أن يكونوا مثاليين في سلوكهم، يجب أن يقدم لهم نموذجًا حيًا للمثالية في سلوكه. وبذلك يكون لكلامه أثر العظيم على سامعيه، حيث تتطابق طريقة حياته مع أقواله. فإن القدوة الصالحة ستكون أقوى عامل في تنفيذ أقواله، وفي هذا يقول النبي: "**على جبل عالٍ اصعدي يا مبشرة صهيون**[1] **(ارفعي صوتك بقوة)**". (إش ٤٠: ٩) أي أن الذي يتولى التعليم السماوي يجب أن يكون قد سما بنفسه عن دنايا الأعمال الأرضية، وأن يرتفع بنفسه إلى مكانة عالية، وهو يستطيع بسلوكه الصالح في الحياة أن ينادي بصوته من الأعالي راعيًا الرعية إلى حياة أفضل.

لهذا السبب كان الكاهن "**حسب الشريعة**" يتسلم الساق اليُمنى للذبيحة منفصلة ليقدمها قربانًا (خر ٢٩: ٢٢)، فسلوك الراعي إذًا لا يجب أن يكون نافعًا فقط، بل أن يكون واضحًا أيضًا، ولا ينبغي أن يتميز عن سلوك الأشرار فقط، بل أن يفوق سلوكه سلوك الأبرار من رعيته أيضًا. وكما يمتاز الراعي في رتبته، عليه كذلك أن يتميز على الرعية في سلوكه.

مرة أخرى نجد أن **صدر** الذبيحة **وساقها** يُخصصان لطعام الكاهن (خر ٢٩: ٢٨)، حتى يتعلم أن يكرس لله أجزاء جسمه التي تقابل الأجزاء التي أخذها من جسم الذبيحة. فلا يكفي أن يكون صدر الكاهن وقلبه مملوءين بالأفكار الصالحة بل عليه كذلك أن يدعو كل من ينظر إليه لأن يرتفع إلى مكانة نبيلة، وعليه ألا يشتهى مباهج الحياة الحاضرة، وألا يخاف أية ضيقة، وأن يحتقر مديح العالم بالنظر إلى الفرح الذي يفيض في ضميره.

لهذا السبب أيضًا يشد الكاهن بزنار على كتفيه لكي تحرسه الفضيلة ضد الضيقات وضد التنعم الزائد لذلك يقول بولس الرسول: "**(في قوة الله) بسلاح البرّ لليمين ولليسار**" (٢ كو ٦: ٧). فبينما يهتم الراعي بالأشياء الداخلية، عليه ألا يميل إلى اللذة الوضيعة، كذلك لا يجب أن تجعله الرفاهية أن يتكبر، وألا تجرفه الضيقات وتحزنه، ولا ينبغي أن تضعف الأمور السهلة من إرادته بل وألا تجعله الأمور الصعبة أن ييأس. وهكذا عندما يصمد الراعي ولا تضعف إرادته أمام الضيقات المختلفة، **يظهر جمال الزنار الذي يغطى كتفيه.**

وبالإضافة إلى هذا، فقد اشترط أن يكون الزنار من ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وكتان (بوص) مغزول (قارن بخروج ٢٨: ٨)، حتى يتضح لنا كيف أن الكاهن يجب أن يجمع فضائل متنوعة، فالذهب في ملابس الكاهن يفوق كل الأشياء الأخرى في اللمعان، وعليه يجب أن يتفوق الكاهن على الآخرين في فهم الحكمة، ولقد تم إضافة الأسمانجونى اللامع الأزرق كلون السماء لكي يشير إلى أن الكاهن لا يجب أن ينزل بنفسه إلى حضيض الأمور الأرضية، بل أن يرتفع بها إلى حب الأشياء **السمائية** في كل أمر يفكر فيه، وعليه أن يحذر من الوقوع في فخ المديح الذي يسلبه القدرة على تمييز الحق.

---

[1] نود أن نلفت نظر القارئ العزيز بأنه حيثما يوجد جزء من آية بين قوسين فإن هذا يعني تكملة الآية لا توجد في النص المترجم عنه وقد وضع بين قوسين حول التكملة وذلك بغرض التوضيح.

ولقد تم أيضًا إضافة الأرجوان مع الذهب والأسمانجوني وهذا يشير إلى أنه بينما يتأمل قلب الكاهن في الأمور التي يعظ بها فإنه يجب عليه أن يميت كل الرغبات الشريرة مهما كانت ضعيفة ويصدها **بقوة**، ناظرًا إلى داخله المتجدد، ومحصنا حقه في الملكوت السماوي بسلوكه في هذه الحياة. ولقد كان بطرس الرسول يعنى هذا السمو الروحي عندما قال: "**وأما أنتم فجنس مختار، وكهنوت ملوكي**". (١ بط ٢: ٩) أما عن القوة التي بها يمكن يتغلب بها على الخطية فيقول يوحنا الحبيب معضدًا الرعاة ومعزيًا إياهم: "**وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله**". (يو ١: ١٢) ولقد تأمل صاحب المزامير في هذه القوة حين قال: "**ما أكرم أفكارك يا الله عندي! ما أكثر جملتها!**" (مز ١٣٩: ١٧) فبالحق عندما يُحتقر القديسون في عيون الناس ترتفع عقولهم إلى أعلى المراتب.

وقد تم أيضا إضافة القرمز إلى الذهب والأسمانجونى والأرجوان، الذي يبدو لامعًا في عيون الناس **ومضيئا أمام الله بلهيب المحبة** المنبثقة من القلب، ولأن هذه المحبة تشمل الله والناس فإن لها وجهان؛ فالشخص الذي يحب خالقه وفي نفس الوقت يهمل العناية بأخيه، أو ذاك الذي ينهمك في حب القريب حتى ينسى الحب الإلهي، هذان النوعان من الأشخاص لا يعرفان ماذا يعني القرمز في تزيين الزنار.

وبينما يعكف العقل على وصية المحبة يبقى أن نذكر أن الجسد يجب دون أدني شك أن يخضع بالزهد والتقشف، وكنتيجة لهذا ذكر (البوص) الكتان الناعم مع القرمز، فهو يخرج من الأرض بلون لامع وهو لا يعني إلا العفاف، ويعني لمعانه جمال الطهارة الجسدية. وكما أن البوص المغزول يسهم في جمال الزنار، فإن العفاف يفضي لمعانًا كاملاً على الطهارة في الوقت الذي يضعف الجسد بالزهد، وبينما تظهر فضائل الجسد الممات بهذه الطريقة مع الفضائل الأخرى، يشرق بهاء الكتان ويظهر جمال الزنار ذي الألوان المتعددة.

الفصل الرابع

ينبغي أن يكون الراعي حكيمًا في صمته نافعًا في كلامه

لابد أن يكون الراعي حكيمًا في صمته، نافعًا في كلامه، لئلا ينطق بما ينبغي أن يبقى سرًا، أو يبقي سرًا ما كان ينبغي أن ينطق به، فكما أن الكلام غير الحذر يقود الرعية إلى الوقوع في الخطأ، كذلك السكوت في غير محله يجعل بعض الناس يقعون في الخطأ مع أنه كان يمكن إصلاحهم بالإرشاد.

في كثير من الأحيان يحجم بعض الرعاة عن الكلام وإظهار الحق، خوفًا من أن يفقدوا احترام الناس، ولا يظهرون في قول الحق غيرة الرعاة الذين يهتمون بأمر القطيع بل يتصرفون كأجراء (يو ١٠: ١٢.) فعندما يظهر الذئب يهرب هؤلاء ويخفون أنفسهم في صمت. ولهذا يؤنبهم الله على لسان النبي قائلاً: "**كلهم كلاب بُكم لا تقدر أن تنبح**". (إش ٥٦: ١٠) ومرة أخرى يشكو عليهم قائلاً: "**لم تصعدوا إلى الثغر، ولم تبنوا جدارًا لبيت إسرائيل للوقوف في الحرب في يوم الرب**". (حز ١٣: ٥) ومعنى الصعود إلى الثغر ومحاربة العدو هو معارضة القوات الأرضية بكلام صريح للدفاع عن القطيع، والوقوف في الحرب في يوم الرب هو مقاومة الأشرار الذين يحاربوننا وذلك حبا في العدل، **لأنه إذ جبن الراعي عن أن يقول ما هو حق، فماذا يعنى هذا إلا أنه بعدم الكلام قد أدار ظهره وهرب؟** ولكن عندما يضع نفسه في مقدمة القطيع للدفاع عنه، فهذا بمثابة بناء جدار لبيت إسرائيل ضد الأعداء.

ولهذا أيضًا قيل للخطاة: "**أنبياؤك رأوا لك كذبًا وباطلاً، ولم يعلنوا إثمك ليردوا سبيك**" (مراثي إرميا ٢: ١٤) ويلاحظ أن المعلمين كانوا يسمون أحيانًا "**أنبياء**" في الكتاب المقدس، لأنهم كانوا يظهرون طبيعة الحاضر ويعلنون المستقبل. وكأن الله يتهمهم بالكذب إذا امتدحوا فاعلي الشر وقاموا بتبرئتهم بدلاً من إدانة أخطائهم، وذلك خوفًا منهم. وإذا تجنب الرعاة استعمال كلمات التوبيخ يفشلون في الكشف عن أخطاء الأشرار. إن كلمات التوبيخ لهي حقًا المفتاح الذي يظهر الخطية التي لا يحس بها فاعلها في كثير من الأحيان. لهذا يقول بولس الرسول: "**ملازمًا للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم، لكي يكون قادرًا أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين.**" (تي ١: ٩) ويقول ملاخي أيضًا: "**لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة، ومن فمه يطلبون الشريعة، لأنه رسول رب الجنود.**" (ملا ٢: ٧) لهذا يحذر الرب على لسان إشعياء قائلاً: "**ناد بصوتٍ عالٍ. لا تمسك. ارفع صوتك كبوق**". (إش ٥٨: ١) فالذي يدخل الكهنوت يأخذ منصب **رسول** يصيح بصوت عال، ويسبق مجيء الديان العادل الذي يتبعه بمظهر رهيب.

إذا كان الكاهن لا يستطيع أن يعظ، فأي صوت يمكن لهذا الرسول الأبكم أن ينطق به؟ لهذا السبب استقر الروح القدس على الرعيل الأول من الرعاة على شكل ألسنة: ("**وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم.**") (أع ٢: ٣) لكي يعطى قوة الفصاحة على الفور للذين يملأهم.

ولهذا قيل لموسى أنه يجب أن يتأكد من أن الكاهن حينما يدخل خيمة الاجتماع يجب أن يكون محاطًا بأجراس صغيرة (خر ٢٨: ٣٣)، للدلالة على أن الكاهن يجب أن يكون موهوبًا في الوعظ، لئلا يستوجب بسكوته دينونة الله الذي يرى من فوق. لأنه مكتوب: "**ليسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب، وعند خروجه، لئلا يموت**". (خر ٢٨: ٣٥) يقع حكم الموت على الكاهن إذا لم يُسمع صوته عند دخوله أو خروجه، وهذا يعني أن الكاهن يثير غضب الديان غير المرئي إذا لم يتكلم بالوعظ والتبشير.

ولقد ثبتت الأجراس الصغيرة في الملابس. وماذا تعني ملابس الكاهن إلا أعماله الصالحة! يشهد النبي بذلك حينما يقول: "**كهنتك يلبسون البرّ، وأتقياؤك يبتهجون**". (مز ١٣٢: ٩) فهذه الأجراس الصغيرة أو الجلاجل كانت تثبت في الملابس لكي ما تعلن عن أعمال الكاهن بصوتٍ عالٍ عن طريق حياته وفي كلامه.

لكن حينما يعد الراعي نفسه للكلام يجب عليه أن يتوخى الحذر في كلامه، لأنه إذا كان متسرعًا في إلقائه، غير منظم ولا مرتب، فإن التشتيت يفصل بينه وبين سامعيه. لهذا السبب يقول السيد المسيح: "**ليكن لكم في أنفسكم ملح، وسالموا بعضكم بعضًا**" (مر ٩: ٥٠). والمقصود هنا بالملح هو الحكمة في الكلام. لذلك فليحذر الذي يبتغي الكلام ولو في ضعفٍ زائدٍ أن يضعف كلامه هذا وحدة السامعين، وفي هذا يقول بولس الرسول: "**فإني أقول بالنعمة المعطاة لي، لكل من هو بينكم: أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي، بل يرتئي إلى التعقل**". (رو ١٢: ٣)

لذلك كان يُضاف الرمان إلى الأجراس الصغيرة في ملابس الكاهن تبعًا للشريعة الإلهية (خر ٢٨: ٣٤)، وهذا لا يعني إلا وحدة الإيمان. فكما يوجد في داخل الرمان بذور كثيرة تجمعها قشرة خارجية واحدة، هكذا وحدة الإيمان تضم عددًا لا حصر له من أعضاء الكنيسة المقدسة الذين يتحدون تحت لوائها وإن اختلفوا في الصفات والوظائف. لهذا ولئلا يندفع الكاهن في كلامه بغير وعي، قال يسوع لتلاميذه: "**ليكن لكم في أنفسكم ملح، وسالموا بعضكم بعضًا**" وكأنه يقول لهم، مستعملاً رمز ملابس الكاهن: "اجمعوا الرمان بالأجراس حتى تحفظوا وحدة الإيمان بخوف وحذر في كل ما تقولون".

يجب أن يتأكد الرعاة من أن شفاههم لا تخرج شيئًا شريرًا. وعليهم كذلك أن لا ينطقوا بالكلام النافع بمبالغة أو بإهمال، فغالبًا ما تضيع قوة الكلمة إذا ما ألقيت في **سيل** غير مناسب من الكلمات مما يُضعف تأثيرها في قلوب السامعين. هذا النوع من عدم التدقيق في الحديث يضعف المتحدث نفسه، كما أنه لا يأخذ في اعتباره احتياجات السامعين العملية. كذلك قال موسى: "**كل رجل يكون له سيل من لحمه، فسيله نجس**". (لا ١٥: ٢) فكل الأفكار التي تسيل إلى عقل السامعين تعتمد على طبيعة الأمور المسموعة. لأنه عندما تقع الكلمة على مسامعنا، تولد أفكارًا في العقل. لذلك دعا فلاسفة هذا العالم كبير المعلمين (بولس الرسول) "**باذر الكلمة**".

لذلك فإن كل رجل يكون له سيل يكون نجسًا، لأنه إذ يترك نفسه لكثرة الكلام فإنه يسيء إلى ذاته، لكن لو انتظم حديثه تتولد ألأفكار الروحانية في قلوب السامعين. وفي هذا يقول بولس الرسول أيضًا ناصحًا تلميذه بالعكوف على الوعظ: "**أنا أناشدك إذا أمام الله والرب يسوع المسيح، العتيد أن يدين الأحياء والأموات، عند ظهوره وملكوته: أكرز بالكلمة. أعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب.**" (٢ تي ٤: ١).

الفصل الخامس

يجب أن يكون الراعي أخًا عطوفًا على كل إنسانٍ، متساميًا على الجميع في تفكيره

فليكن الراعي قريبًا من الجميع بعطفه عليهم، وليتسامى تفكيره على الجميع حتى يستطيع بمحبته القلبية أن يعرف نقائص رعيته ويحملها، وعن طريق سمو تأملاته، فإنه يتسامى حتى على ذاته في شوقه للأشياء غير المنظورة، وإلا فإنه إما سيهمل نقائص رعيته وضعفاتهم، ويتغاضى عنها بانشغاله في تحقيق آماله العالية، أو على العكس يرتبك بالأمور الدنيا، ويكف عن السعي إلى ما هو أفضل. فلقد اقتيد بولس الرسول إلى السماء الثالثة وتأمل أسرار الفردوس (٢ كو ١٢: ١-٦)، لكن مع أنه ارتقى إلى تأمل هذه الأشياء غير المنظورة، عاد بعقله الرائي حتى إلى فراش الجسدانيين ووضع لهم قواعد لعلاقاتهم السرية قائلاً: "**ولكن بسبب الزنى، ليكن لكل واحد امرأته، وليكن لكل واحدة رجلها. ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضًا الرجل.**" (١ كو ٧: ٢-٣).

وأيضًا يقول: "**لا يسلب أحدكم الآخر، إلا أن يكون على موافقة، إلى حين، لكي تتفرغوا للصوم والصلاة، ثم تجتمعوا أيضًا معًا لكي لا يجربكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم**". (١ كو ٧: ٥)

ويلاحظ أن بولس الرسول كان قد بدأ فعلاً بتأمل أسرار السماء، ومع ذلك بمحبته المتواضعة نزل بفكره إلى فراش الجسدانيين. وبينما كان يرتفع بقلبه الرائي إلى الأمور غير المنظورة حيث قد سما شخصيًا، إلا أنه يعود بعطفٍ وينظر في أسرار الضعفاء. وبينما يرتفع في خضم تأملاته إلى السماء، فهو في شدة اهتمامه، لا يتجاهل فراش الجسدانيين. فهو إذًا ارتبط **برباط المحبة** في اسمى الأمور وأقلها على السواء، ومع أن بولس شخصيًا متعلق بشدة بأعلى المراتب بقوة الروح القدس إلا أنه فرح في رقة المحب أن يكون ضعيفًا مع الآخرين في ضعفهم. لهذا يقول: "**من يضعف وأنا لا أضعف؟ من يعثر وأنا لا ألتهب؟**" (٢ كو ١١: ٢٩) ويقول أيضًا: "**صرت لليهود كيهودي**" (١ كو ٩: ٢٠) **فعل ذلك بالطبع ليس لترك إيمانه بل لاتساع مجال محبته.** وهكذا قصد بتقمصه شخصية غير المؤمن أن يتعلم كيف يعطف على الآخرين، وأن يمنحهم ما يود هو أن يمنحونه إياه لو كان في مكانهم. ولهذا يقول أيضًا: "**لأننا إن صرنا مختلين فللَّه. أو كنا عاقلين فلكم**". (٢ كو ٥: ١٣) لأنه كان يعرف كيف يتفوق على نفسه بالتأمل، وكيف يضبط نفسه بالنزول إلى مستوى سامعيه.

لقد رأىّ يعقوب الرب واقفًا على رأس السلم النازل من السماء إلى الحجر الذي صب عليه الزيت، وكانت الملائكة صاعدة ونازلة عليه (تك ٢٨: ١١-١٨) وفي هذا درس للمعلمين الحقيقيين إذ لا يجب عليهم أن يكتفوا بالنظر إلى الرأس المقدسة للكنيسة بل عليهم أن ينزلوا إلى أعضاء الكنيسة ويتلطفوا بهم.

وهكذا كان موسى يدخل ويخرج كثيرًا إلى خيمة الاجتماع وكان عند وجوده بداخلها ينشغل بالتأملات، وعند وجوده في الخارج يكرس نفسه لخدمة الضعفاء. إنه يتأمل وهو في الداخل في الأمور الإلهية الحقيقية، بينما يتحمل وهو في الخارج أعباء الرعية، وفي الأمور المشكوك فيها كان يرجع إلى خيمة الاجتماع ليستشير الله أمام تابوت الشهادة.

وهكذا كان يضرب موسى مثلاً حسنًا للرعاة حتى إذا لم يستطيعوا التصرف في أمرٍ من الأمور الدنيوية وجب عليهم الرجوع إلى التأمل (بالدخول إلى خيمة الاجتماع)، وهناك كما لو كانوا يقفون أمام تابوت العهد

لاستشارة الله، حيث يمكنهم أن يجدوا حلاً لمشاكلهم في صفحات الكتاب المقدس.

وهكذا كان الكلمة الحق، الذي أعلن ذاته لنا في شكل طبيعتنا البشرية، يصلي على الجبل، ثم يخرج يصنع المعجزات مع الناس (لو ٦: ١٢)، لكي يرينا الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الرعاة الأمناء الذين لا ينسون في غمرة انشغالهم بالتأمل أن يشاركوا بعطفهم الضعفاء في احتياجاتهم. عندئذ ترتفع المحبة إلى درجة عالية، تنزل بالعطف إلى أدنى أمور الرعية، وكلما زاد العطف وانحنت أمام ضعفات الرعية، كلما تقوت بالأكثر في الوصول إلى العلا.

على الرعاة أن يتأكدوا من أن الرعية لا تخاف أن تكشف ما خفي من الأسرار[١]. عندئذ تستطيع الرعية الضعيفة وهي تقاوم أمواج التجارب العاتية أن تلجأ مطمئنة إلى سعة فهم الراعي كما إلى صدر أم حنون، وبواسطة الراحة التي تبعثها كلماته المعزية وصلواته المصحوبة بدموع المعترفين تستطيع الرعية أن تتطهر عندما تقر مدركة أنها قد تدنست بفعل الخطية التي سقطت فيها.

لهذا أيضًا وضع أمام أبواب الهيكل "بحرًا" من النحاس الأصفر لغسل أيدي الذين يدخلون إلى الهيكل. وكان هذا الحوض محمولاً على أثني عشر ثورًا يمكن رؤية وجوهها بوضوح، ولكن أعجازها (خلفياتها) غير ظاهرة. ماذا تعنى إذًا الأثنى عشر ثورًا إلا كمال النظام الرعوي؟ عن هذا يقول الناموس كما يقرر بولس: "**لا تكُم ثورًا دارسًا**"[٢]. (١ كو ٩: ٩؛ ١ تي ٥: ١٨) فنحن نرى الأعمال التي يقوم بها الرعاة علانية ولكننا لا نرى الأمور الباقية الخفية التي يسجلها لهم الديان العادل في حسابهم السري. وهؤلاء الذين أعدوا أنفسهم بتواضعٍ وصبرٍ ليعملوا على تطهير الخطايا التي تعترف بها رعيتهم، إنما هم في واقع الأمر يحملون المغسل أمام باب الهيكل. إذًا فعلى كل من يريد أن يدخل من باب الأبدية أن يفضى بخطاياه إلى الكاهن، **ويطهر يدي الفكر والعمل** في الحوض القائم على الثيران.

ويحدث كثيرًا أنه عندما ينزل الراعي بفكره لكي يتعلم من تجارب الرعية، تهاجمه شخصيًا الأخطاء التي يصغي بسمعه إليها. فكما يحدث في حالة المغسل، الذي يتلوث بينما تتطهر الجماهير بواسطته، فهو يتلقى أقذار الناس الذين يغتسلون فيه وبذلك يمكن أن يتلوث ويفقد صفاءه، **ولكن على الراعي ألا يخاف هذه الأمور على الإطلاق، لأن الله يزن الأمور بدقة**، وهكذا ينجو الراعي من التجارب بسهولة أكثر لأنه يتعذب بحب بسبب تجارب الرعية.

---

[١] بهذه العبارة يشير غريغوريوس الكبير إلى سر التوبة والاعتراف الذي فيه تتقدم النفوس التائبة ساجدة بدموع، عليك إذا أيها الراعي أن تغتنم هذه الفرصة. لا تتعجل. لتمتزج صلواتك وكلماتك المعزية مع دموع التائبين. إنه وقت مقبول! وساعة للتطهر!

[٢] مأخوذة أصلا من (تث ٢٥: ٤).

الفصل السادس

يجب أن يكون الراعي في تواضعه مترفقًا بمن يحيون الحياة الصالحة، وفي غيرته صارمًا مع فاعلي الشر

ينبغي أن يكون الراعي متواضعًا مترفقًا بمن يحيون حياة صالحة. وعليه كذلك أن يكون حازمًا مع فاعلي الشر، وأن لا يتعالى على فاعلي الخير. كذلك عليه أن يظهر قوة سلطانه في الحال حينما تستدعي خطايا الأشرار ذلك، وعليه أن يترك رتبته جانبًا ويعتبر نفسه مساويًا لأصحاب الحياة الفاضلة، وفي نفس الوقت عليه ألا يتردد في تنفيذ قوانين الإصلاح ضد الأشرار والمعاندين.

إنني أذكر ما قلته في "تفسير سفر أيوب *Magna Moralia In Job*" إن كل الناس خلقوا بطبيعتهم متساوين في البداية بينما تسببت الخطية في تقسيمهم إلى طبقات حسب نقائصهم المختلفة، وهذا التقسيم إنما هو حكم إلهي. فهناك من يحكم الآخرين حيث أنه لا يمكن أن يكون جميع الناس على قدم المساواة.

لهذا السبب لا يجب أن ينظر أصحاب السلطان إلى قوة سلطانهم، ولكن إلى هذه الطبيعة المتساوية بين البشر. وعليهم ألا يجدوا لذتهم وسرورهم في التحكم في الناس، بل في مساعدتهم، لأننا نعلم أن **آباءنا الأولين لم يكونوا ملوكًا بل رعاة غنم**، وعندما قال الله لنوح وأولاده: "**أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض**" (تك ٩: ١)، أضاف على الفور قائلاً: "**ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض**". إن الخشية والرهبة فرضت على كل حيوانات الأرض، وليس على البشر. والإنسان بطبيعته يمتاز عن الحيوانات، ولكنه لا يتميز على الأناس الآخرين، ولهذا قيل له أنه سيكون مرهوبًا من الحيوانات، ولكن ليس من البشر. ومن الواضح أن الخوف من شخص معناه سيادة هذا الشخص على الآخرين، وهذا ضد النظام الطبيعي.

إلا أنه من الضروري أن تهاب الرعية الرعاة، فعندما لا تخاف هذه الرعية من دينونة الله، فلا أقل من أن تحجم عن فعل الخطية بسبب الخوف من البشر. وعندما يوحي أصحاب الرتب بالرهبة، فإن ذلك لا يكون من باب طلب المجد الشخصي، بل من أجل برّ الرعية. لأنه بإيحاء الرهبة في قلوب فاعلي الشر، يكون الرعاة حينئذ كأنهم يسودون على وحوش وليس على بشر، هكذا لأنه طالما تسلك الرعية كحيوانات، فإنه ينبغي أن يتم إخضاعها بالخوف.

ومما يؤسف له أن الرعاة كثيرًا ما ينخدعون ويسقطون في الكبرياء نتيجة لسلطانهم على الآخرين، ولأن كل الأمور تصير في خدمتهم. يود كل واحدٍ منهم أن أوامره في الخدمة تنفذ بسرعة حسبما يريد، والرعية كلها تمدحه على حسن تصرفه، وهي لا تملك أن تنتقد تصرفاته الخاطئة بل إنها تمدحه حيث كان يجب أن تذمه. عندما يرى الراعي كل ذلك يتصلف قلبه الذي يضل الطريق لسوء فهم الرعية. وبينما هو مُحاط في الخارج بمظاهر الاحترام، يكون قلبه خاليًا تمامًا من الحق، وهو يحيد عن الحق عندما يتناسى قدر ذاته، وينصت إلى مديح الآخرين مصدقًا ما يقوله الناس عنه، وليس لما ينبغي أن يحكم به هو على نفسه في باطنها. في كل هذا يظن أن أفراد الرعية أقل شأنًا منه وغير متساوين معه حسب النظام الطبيعي، معتقدًا بأنه يمتاز بميزات شخصية في حياته عن أولئك الذين يعلو عليهم بحكم رتبته. وهكذا يعتقد أنه أحكم من جميع الناس لأنه يفوقهم في السلطان، وأنه على جانب عظيم من الرفعة في عيني نفسه، ومع ان هناك حدودًا تفرض المساواة في الطبع البشري فإنه يكره أن ينظر إلى الآخرين على أنهم متساوون معه. وهو في هذا يجعل نفسه شبيها بمن يقول عنه

الكتاب المقدس: "**يشرف على كل متعالٍ. هو ملك على كل بني الكبرياء**". (أي ٤١: ٣٤) وأيضا مثل ذلك الذي مال إلى الكبرياء الذاتي، محتقرا الحياة مع الملائكة، قائلاً: "**وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، وأصعد فوق مرتفعات السماء. وأصير مثل العلى**" (إش ١٤: ١٣-١٤). وبينما هو في الظاهر يرفع نفسه إلى قمة المجد والقوة، فانه في الباطن يحفر هاوية سقوطه. إن الإنسان يصبح كالملاك الجاحد حينما يحتقر كونه مثل بقية الناس بالرغم من أنه فعلاً هو إنسان عادي مثلهم.

هكذا تعظم شاول بعدما كان معروفًا بتواضعه، وأصابه الغرور بسبب عظم قوته. لقد اختاره الله للخدمة عندما كان متواضعًا، ورفضه عندما صار متصلفًا. يقول له صموئيل النبي: "**أليس إذ كنت صغيرًا في عينيك صرت رأس أسباط إسرائيل ومسحك الرب ملكًا... لأنك رفضت كلام الرب، رفضك من الملك**" (١ صم ١٥: ١٧-٢٣). ففي بدء مُلكه كان يرى نفسه شخصًا صغيرًا في عيني نفسه، لكن عندما اعتمد على القوة الزمنية نظر إلى نفسه على أنه أفضل من الآخرين، وأعظم من الكل. والحقيقة التي تدعو للعجب أنه بينما كان صغيرًا في عيني نفسه كان عظيمًا عند الله، وعندما ظن في نفسه أنه عظيم أصبح صغيرًا في عين الله.

عادة عندما يتكبر فكر الإنسان بسبب كثرة أفراد الرعية الذين يحكمهم، يفسد عقله ويتدنس ويصيبه الغرور بعظمة قوته. ولكن هذه القوة يمكن أن يتحكم فيها الإنسان إذا عرف كيف يستعملها وكيف يصدها. فالعقل الإنساني معرض للإصابة بالغرور حتى ولو كان لا يملك القوة، فكم بالحري إذا كان يملكها. والذي يستطيع توجيه قوته توجيهًا صحيحًا، هو الذي يعرف أن يحصل بهذه القوة على ما ينفع، وكيف يحقق المساواة مع غيره رغم امتلاكه القوة، وفي نفس الوقت يعرف كيف يرتفع عن الشر مجازيًا المجدفين.

يتضح لنا هذا بالأكثر عندما نتأمل الأمثلة التي قدمها بطرس الرسول، الذي أخذ من الرب الموقع الأول في الكنيسة المقدسة[1]، الذي رفض الاحترام الزائد من كرنيليوس الذي تصرف تصرفًا صحيحًا في سجوده بتواضع، ولكن بطرس نظر إليه كشخصٍ مساوٍ له، وقال له: "**قم أنا أيضًا إنسان**" (أع ١٠: ٢٦). ولكنه عندما اكتشف خطية حنانيا وسفيره، أظهر في الحال سلطانه، وقضى على حياتهما عندما اكتشف سرّهما بروحه الفاحصة (أع ٥: ٣-٥). فلقد تذكر مباشرة أنه صاحب السلطان الكنسي في مقاومته للشر، ولكن لم يخطر على باله فكر كهذا، وهو في وسط إخوانه الأبرار من الرعية مع أنهم كانوا يجلونه. ففي الحالة الأولى نرى أن السلوك الصالح يقابله تأكيد المساواة بين الجميع، وفي الحالة الثانية نجد أن الغيرة في المجازاة بالعدل أظهرت علو السلطان.

إن بولس الرسول لم يظهر أيّ شعور بالعظمة أو الامتياز عن إخوانه الأتقياء عندما قال: "**ليس أننا نسود على إيمانكم، بل نحن مؤازرون لسروركم. لأنكم به بالإيمان مثبتون**". (٢ كو ١: ٢٤) وهو يشرح لنا قائلاً: "إننا لا نتسلط على إيمانكم لأنكم بالإيمان مثبتون ونحن مساوون لكم لأننا نعرف أنكم مثبتون". هذا وكأن بولس يدرك تميزه عن الرعية حين يقول: "**فإننا لسنا نكرز بأنفسنا، بل بالمسيح يسوع ربًا، ولكن بأنفسنا عبيدًا لكم من أجل يسوع**". (٢ كو ٤: ٥) ولكن عندما أكتشف خطأ يستوجب التصحيح تذكر على الفور أنه سيد ومعلم وقال: "**ماذا تريدون؟ أبعصا آتى إليكم**"؟ (١ كو ٤: ٢١) إن السلطان الذي لأصحاب الرتب العظيمة يجب أن يُستخدم ضد الأشرار وليس ضد الإخوة الأبرار. وعندما يحاول الرعاة إصلاح الرعية المنحرفة يجب عليهم أن يتحلوا بالتواضع حتى لا ينحرفوا في استخدام سلطتهم وأن يشعروا أنهم مساوون للإخوة الذين

---

[1] كثيرًا ما أشار البابا غريغوريوس إلى مساواته للأساقفة الآخرين، وأنه يرفض فكرة وجود أي أسقف مسكوني له سلطان على إخوته الأساقفة في العالم، ولست أظن أنه كان يعتقد في الرسول بطرس كرئيس على الرسل.

يصلحونهم. وعلينا نحن الرعاة أن نتدرب في صمتٍ وتأملٍ وأن نفضل الأشخاص الذين يتم إصلاح أخطائهم عن أنفسنا، لأن خطاياهم قد تصححت عن طريقنا بتدريبات شاقة، أما خطايانا نحن الرعاة فلم يوبخنا عليها أحد حتى ولو بالكلمة. **من أجل هذا ندان نحن الرعاة أمام الرب بقدر ما نُعتق من العقاب أمام الناس.** وبالأكثر تتحرر الرعية من الدينونة الإلهية، لأنها تدان على أخطائها هنا في هذا العالم.

لهذا يجب أن نحفظ التواضع في القلب، ونتروض به في العمل، وبين هذين يجب أن نحذر من التهاون في حقوق الحكم نتيجة للإغراق الزائد عن الحد في التواضع. لأنه إذا وضع الشخص المسئول من ذاته دون داع، فقد لا يستطيع أن يحفظ حياة الرعية في دائرة النظام. لذلك فليكن تصرف الرعاة الخارجي حسب ما يرونه واجبًا لخدمة الآخرين وليحفظوا في داخلهم الخوف بالنسبة لتقييم أنفسهم، وهكذا فلتتأكد الرعية أن الرعاة متواضعين داخليًا أمام أنفسهم. وهكذا يجب على الرعية أن تدرك ما ينبغي أن تخافه من السلطة، وما ينبغي أن تقلده في محيط التواضع.

وعلى الرعاة أن يتذكروا دائما أنه بقدر ما يعظم مظهرهم الخارجي بقدر ما يجب إخضاع نفوسهم داخليًا. فالسلطة لا ينبغي أن تسيطر على التفكير، ولا أن تأسرهم وإلا عجز العقل عن التحكم في هذه القوة وخضع لها بسبب حبه للسيطرة والسيادة. وفي هذا قال أحد الحكماء: "**إن أقاموك حاكمًا لا ترتفع، ولكن لتسلك بين الرعية كواحدٍ منهم**". كذلك يقول بطرس الرسول: "**ولا كمن يسود على الأنصبة، بل صائرين أمثلة للرعية**". (١ بط ٥: ٣) هكذا يدعونا إله الحق إلى المزايا السامية للفضيلة قائلا: "**أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلطون عليهم، فلا يكون هذا فيكم. بل من أراد أن يكون فيكم عظيمًا فليكن خادمًا. ومن أراد أن يكون فيكم أولاً، فليكن لكم عبدًا. كما أن ابن الإنسان لم يأتِ ليُخدم بل يخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين**". (مت ٢٠: ٢٥-٢٨)

لهذا أشار الرب إلى العقاب الذي ينتظر الخادم الذي يتكبر بنفس القدر الذي أعطى له من سلطة قائلاً: "**ولكن أن قال ذلك العبد الردئ في قلبه سيدي يبطئ قدومه. فيبتدئ يضرب العبيد رفقاءه، ويأكل ويشرب مع السكارى، يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره، وفي ساعة لا يعرفها. فيقطعه ويجعل نصيبه مع المرائين، هناك يكون البكاء صرير الإنسان**". (مت ٢٤: ٤٨-٥١) فمن يستغل سلطة الحكم لفرض السيادة هو بالحقيقة منافق.

ولكن في بعض الأحيان تتولد شرور أكثر عندما يعامل الأشرار بسياسة المساواة وليس بالانضباط والعدل، ومثال ذلك عالي الكاهن الذي تغلبت عليه العاطفة في غير اتجاهها الصحيح، فإذ لم يرغب في تأديب ولديه المخطئين مات هو وولديه بحكم الديان العادل كالقول الإلهي: "**وتكرم بنيك عليّ**" (١ صم ٢: ٢٩). وقد وبخ النبي الرعاة قائلاً: "**والمكسور لم تجبروه، والمطرود لم تستردوه**". (حز ٣٤: ٤) ويمكن إرجاع المطرود مرة ثانية إلى حياة الصلاح بعد سقوطه في الخطية، وذلك بفعل الرعاية الكهنوتية. فعندما تسود الرعاية والنظام على الخطية يكون ذلك أشبه بضمادة تربط جراحًا، وقد يستمر الجرح في النزيف ويفضي إلى الموت كنتيجة لعدم وجود ضغط محكم يربطه، ولكن يحدث أحيانًا أن تسوء حالة الجرح بسبب تضميده بضمادة غير متقنة. إذ أن الجرح يسبب آلامًا أكثر بربطه بشدة أكثر من اللازم.

لذلك فإنه من الضروري عند تضميد جراح الخطية أن يكون الرباط معتدلاً، حتى لا يضيع الشعور بالرحمة نتيجة للطريقة التي تطبق بها مبادئ الرعاية على الخاطي. فعلى الراعي أن يظهر لرعيته الحنان كأم حنون، ويصلحهم كأب. وفي كلتا الحالتين يجب أن يتوخى العلاج الحذر والعناية لئلا تكون قواعد الرعاية صارمة أكثر من اللازم، أو أن يكون العطف ليِّنًا أكثر مما يجب.

وكما ذكرنا من قبل في تفسير سفر أيوب *Magna Moralia In Job* أن الحزم والعطف يكونان كلاهما ناقصين إذا طبق كل منهما على حده. وعلى الحكام في علاقاتهم بالمحكومين أن يكونوا مدفوعين بالشفقة في الوقت المناسب، وبالشدة والنظام الممزوجين بالمحبة وهذا ما يعلمنا إياه الحق الإلهي في مثل السامري الصالح الذي حمل الرجل المشرف على الموت وأوصله للفندق ووضع على جروحه الخمر والزيت، **والخمر ليكوي هذه الجروح، والزيت ليلطفها**. وهكذا من يشفي الجروح يسبب ألمًا شديدًا بالخمر ويلطفها بالزيت، لأن الخمر يطهر الجروح، والزيت يساعد على التئامها. وبعبارة أخرى ينبغي أن تُمزج الرقة بالشدة، بحيث لا تضيق الرعية بالقسوة الشديدة، ولا تضعف بسبب اللين الزائد.

وقد رمز إلى هذا، كما يقول بولس الرسول، بتابوت الشهادة الذي كان فيه، إلى جانب لوحي الشريعة، العصا والمن. لأنه إذا استعملت العصا للتأديب في معرفة كلمة الله المكتوبة في لوحي الشهادة يجب أن يكون هناك المن اللذيذ بجانبها. لذلك يقول داود النبي: "**عصاك وعكازك هما يعزيانني**". (مز ٢٣: ٤) إننا نضرب بالعصا ولكننا نستند على العكاز، فإن كانت العصا تضرب لكي ما تصلح وجب أن يكون هناك عكاز لكي ما يسند ويعزي.

كذلك ينبغي أن يكون هناك الحب الذي لا يفتر والقوة التي لا تعثر والغيرة غير المتطرفة التي يمكن التحكم فيها والحنان الذي يتغاضى عن الهفوات، ولكن في حدود المعقول. وهكذا عندما يمتزج العدل والرحمة في الحكم يمكن للراعي أن يبعث السكينة في الرعية حتى ولو كان يثير الرهبة، فهو يبعث الطمأنينة في نفوس رعيته ولكنه يحملهم في نفس الوقت على احترامه ورهبته.

الفصل السابع

الراعي في اهتمامه بالأمور الخارجية لا ينبغي أن يهمل الحياة الداخلية، وأن لا يهمل الخارجية باهتمامه بالداخلية.

لا ينبغي للراعي أن يقلل من اهتمامه بالحياة الداخلية بسبب اهتمامه بالأمور الخارجية، ولا ينبغي كذلك أن يكون اهتمامه بالحياة الداخلية سببًا في إهماله لشئون الرعاية الروحية، فهو لا يجب أن ينغمس فيما هو خارجي، فيهلك داخليًا أو يحصر نفسه فيما يختص بالداخل فقط، وينسى أن يمنح إخوته الرعاية اللازمة.

إنه في كثير من الأحيان ما ينسى بعض الرعاة أنهم أعطوا سلطانًا على إخوتهم ليعملوا على خلاص نفوسهم، فيكرسون أنفسهم بكل مالهم من قوة لمشاغلهم العالمية، ويتفرغون لهذه المشاكل طالما كانت موجودة أمامهم، فإذا لم تكن موجودة فإنهم يلهثون وراءها ليلاً ونهارًا بعقل قلق ومضطرب، وحتى عندما تنقضي المناسبات التي تستدعى وجود هذه المشاكل فإن فكرهم يظل منشغلاً بها. إنهم يسرون بانشغالهم بها ولا يستريحون إلا إذا هم كدحوا فيها. هؤلاء يسرون بانشغالهم بالاهتمامات العالمية ويهملون الأمور الداخلية التي كان ينبغي أن يعلموها للآخرين. ولهذا تزيد حياة الرعية فتورًا بالرغم من أنها تريد أن تنموا في الروحيات بسبب اصطدامها بحجر العثرة وهو قدوة الرعاة.

فالرأس إن وهنت فقدت الأعضاء قوتها، ومن العبث حينما يشتبك جيش مع قوات الأعداء أن يتبع الجنود قائدهم إذا ضل الطريق، حينئذ لا تنفع أي عظات في تهذيب النفوس، ولا أي توبيخ في أن يعنف آثامها، وإذا تحول راعي النفوس إلى قاضي أرضي فإن القطيع لا يستطيع أن يعاين النور الحقيقي، وعندما ينشغل عقل الراعي بالهموم الأرضية، فإن الغبار الذي تثيره ريح التجارب يعمى عيون المؤمنين.

على العكس من ذلك قال مخلص البشرية ناهيًا إيانا عن الشهوات: "**فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمارٍ وسكرٍ**" ويضيف بعد ذلك مباشرة: "**وهموم الحياة**" وفي نفس المناسبة أضاف عنصر الخوف قائلاً: "**فيصادفكم ذلك اليوم بغتة.**" وقد أعلن طبيعة هذا اليوم فقال: "**لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض**" (لو ٢١: ٣٤-٣٥)، ولنفس السبب قال أيضًا: "**لا يقدر خادم أن يخدم سيدين**" (لو ١٦: ١٣).

لذلك يحذر بولس الرسول نفوس الأتقياء من شركة العالم، وهو لا يكتفي بدعوتهم ضد ذلك، بل يجندهم أيضًا فيقول: "**ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة لكي يرضى من جنده**" (٢ تي ٢: ٤). لأجل ذلك يأمر الرسول رعاة الكنيسة أن يكون هدفهم هو تحرير أنفسهم من هذه الأشياء وهو يشير في مشورته إلى العلاج فيقول: "**فإن كان لكم محاكم في أمور الحياة، فأجلسوا المحتقرين في الكنيسة قضاة**" (١ كو ٦: ٤). أيّ أن الأشخاص الذين لم يتحلوا بالمواهب الروحية عليهم تدبير الشئون العالمية. فهو يريد أن يقول توضيحًا لذلك: بما أن هؤلاء لا يمكنهم إدراك الأمور الداخلية تمامًا، فلا أقل من أن ينشغلوا بالأمور الخارجية. ومن ثم فإن موسى كليم الله قد لامه يثرون الرجل الغريب الجنس لأنه كرس نفسه... لشئون الشعب الأرضية (خر ١٨: ١٧). وقد أشار عليه في نفس الوقت أن يعين أناسًا آخرين معه ليقضوا في المنازعات حتى يتفرغ هو لتعليم أسرار الأمور الروحية وتلقينها للشعب.

إذا فعلى الرعية أن تقوم بالأمور الصغيرة وعلى الرعاة أن يضطلعوا بالأمور الهامة حتى لا يتسبب الغبار الأرضي في إظلام العين التي وضعت عاليًا لترشد الخطاة.

إن الرعاة جميعًا هم رؤوس للرعية ويتحتم على الرأس أن تتطلع إلى الأمام من فوق حتى تستطيع الأقدام السير للأمام في طريق مستقيم. أما إذا أعوجت هيئة الجسم المستقيمة وانحنت الهامة حتى الأرض، تثاقلت الرجل في سيرها في طريق الاستقامة. فكيف يسمح ضمير الراعي له بالتمتع بكرامة الكهنوت عند الآخرين إن كان قد انشغل بالأمور الأرضية التي كان عليه أن يوبخ الآخرين بسببها؟ هذا هو حقًا ما توعده الرب في غضب مجازاته العادلة بالنبي القائل: "**فيكون كما الشعب هكذا الكاهن**" (هو ٤: ٩). ويستوي الكهنة القائمون على الخدمة الروحية مع الشعب عندما تكون أعمالهم كأعمال الذين يسعون وراء كل ما هو جسدي. فقد تأمل إرميا النبي في هذا وأظهر في جزعه على خراب الهيكل حزن محبته العميق، فقال: "**كيف أكدر الذهب تغير بالإبريز الجيد؟ انهالت حجارة القدس في رأس كل شارع**" (مراثي إرميا ٤: ١). وماذا يقصد بالذهب الذي يفوق كل المعادن الأخرى إلا سمو القداسة؟ وماذا يقصد بالإبريز الجيد إلا الاحترام الذي نكنه لهم؟ نعم ماذا تعنى حجارة القدس إلا أصحاب الرتب المقدسة؟ وماذا يقصد بكلمة شوارع إلا سعة هذه الحياة؟ والحق الإلهي نفسه يقول: "**لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدى إلى الهلاك**" (مت ٧: ١٣).

يتكدر الذهب عندما تفسد الحياة المقدسة بالأعمال الأرضية، ويتغير الإبريز الجيد عندما يقل تقدير الناس لهؤلاء الذين كان يظن أنهم أتقياء. فعندما ينشغل إنسان بالأمور الأرضية ويترك حياة القداسة تنتقص كرامته، ويتكدر وكأن بريقه قد بهت في عيون الرعية.

كأن بحجارة القدس تنهال في الشوارع عندما يهتم الرعاة بطرق العالم الواسعة هؤلاء الذين كان ينبغي عليهم أن ينشغلوا بالأسرار الداخلية لزينة الكنيسة، أيّ أسرار تابوت العهد. ومن الواضح أن أحجار القدس كانت تظهر في حلة رئيس الكهنة في القدس الأقداس لكن إن كان سلوك خدام الدين لا يجعل الرعية تقدم الكرامة لمخلصهم، فإن أحجار القدس لا تصبح مكونا لثوب رئيس الكهنة، وهكذا تنهال هذه الأحجار حقًا في الشوارع، عندما يسلم أصحاب الرتب المقدسة أنفسهم إلى ملذاتهم الخاصة، ويلتصقون بالأمور الأرضية.

وينبغي أن نلاحظ أيضًا أنه قد قيل أن هذه الحجارة لم تنهال فقط في الشوارع بل في رؤوس الشوارع أيضًا، وهذا يعني أنه حينما ينشغل الرعاة بالأمور العالمية فإنهم يحبون التواجد على رؤوس الشوارع حتى يتحكموا في الطرق الواسعة التي تؤدى إلى ملذاتهم وفي نفس الوقت يكونون عند رأس الشارع بالمظهر الخارجي للتقوى.

ليس هناك ما يمنع من أن ندرك أن هذه هي الحجارة التي بُني منها القدس. فهي تكون مبعثرة في الشوارع عندما ينغمس رجال الدين في الأمور العالمية، هؤلاء الذين كان يتجلى مجد القداسة في رتبهم المقدسة من قبل. لهذا ينبغي على الراعي أن لا يضطلع بعبء المشاغل العالمية، ولكن عليه ألا يسعى أبدًا وراءها بدافع من الحب لها، خوفًا من أن تسيطر على ذهن الشخص المرتبط بها، فينوء بثقلها ويهبط إلى الأعماق بعيدًا عن الاهتمامات السماوية.

وعلى العكس من ذلك يتعهد البعض برعاية القطيع، لكنهم يرغبون في التفرغ للأمور الروحية تمامًا بحيث لا يعطون وقتًا للأمور الخارجية، وأمثال هؤلاء لا يقدمون أية معونة للرعية، ويهملون الأمور التي تختص بالجسد. ولهذا فليس بغريبٍ إن أهملت الرعية وعظهم، لأنهم بعدم إعطائهم الرعية ضروريات الحياة الحاضرة لا تجد كلماتهم تجاوبًا من السامعين، لأن التعليم لا يصل إلى ذهن من يحتاجون إليه إذا لم يصدر من قلب راعٍ محبٍ وعطوفٍ إلى قلوب السامعين، إن بذرة الكلمة تنمو جيدًا في قلب السامع إذا رواها عطف المعلم. فعلى الراعي إذا أراد أن يزرع في الداخل (القلب) أن يهتم بالخارج (أمور الحياة الدنيا)، أي أن يكرس الرعاة كل جهدهم للحياة الداخلية للرعية، ولكن دون أن يهملوا ما هو للحياة الخارجية أيضًا.

وكما سبق أن قلت أن للرعية العذر إذا لم تقبل كلام الراعي بسبب إهماله في واجب تقديمه المعونة الخارجية. وفي هذا يقدم بطرس الرسول تعليمه الجاد قائلاً: "**أطلب إلى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يعلن، ارعوا رعية الله التي بينكم**". (١ بط ٥: ١-٢) وهو هنا يوضح ما إذا كان يعني رعاية القلب أم رعاية الجسد عندما يضيف: "**نظارًا، لا عن اضطرار بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط**".

وهو هنا يحذر الرعاة برقة، لئلا يطعنوا أنفسهم بخنجر الطموح، وهم يحاولون إرضاء رغبات رعيتهم. ولئلا يظلون محرومين من خبز الصلاح، بعد أن كانوا قد قدموا لإخوتهم المعونة الجسدية. ويذكر بولس الرسول هذا الاهتمام الرعوي عندما يقول: "**وإن كان أحد لا يعتني بخاصته، ولاسيما أهل بيته، فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن**". (١ تي ٥: ٨) لهذا يجب عليهم في مثل هذه الأمور أن يكونوا دائمًا خائفين ومتيقظين لئلا يبتعدون عن أهدافهم الروحية في غمرة انشغالهم بالمشاغل الخارجية . لأنه كما قلت . كثيرًا ما يحدث أن تنشغل قلوب الرعاة في غفلة منهم بالهموم العالمية فيتغير حبهم الداخلي وينغمسوا في الأمور الخارجية، ويتجاهلوا أنهم قد أخذوا على عاتقهم توجيه النفوس . ونتيجة لهذا تكون رعايتهم المقصورة على الناحية الخارجية في حدود ضيقة.

لهذا قال حزقيال عن الكهنة: "**ولا يحلقون رؤوسهم، ولا يربون خصلاً، بل يجزون شعر رؤوسهم جزًا**". (حز ٤٤: ٢٠) لأن الرعاة الحقيقيين هم الذين يتولون رعاية المؤمنين لإرشادهم في الأمور المقدسة.

فالشعر على الرأس هو الأفكار المتعلقة بالأمور الخارجية، وعندما تطغى هذه الأفكار بغزارة على العقل، فإنها تدل على أن مشاغل الحياة الحاضرة تنمو أكثر من اللازم بسبب عدم الاهتمام وتزيد دون أن نشعر بها. لذلك كان يجب على كل من له سلطان على الآخرين أن يهتم بالأمور الخارجية، ولكن دون أن ينشغل بها أكثر من اللازم. فلهذا منع الرعاة من أن يحلقوا شعر رؤوسهم تمامًا، أو يتركوه لينمو، حتى لا ينسوا الاهتمامات الجسدية لرعاياهم، ولا يسمحوا لها كذلك بأن تشغلهم أكثر مما يجب ولهذا أمرهم ألا: "**يجزوا شعر رؤوسهم جزًا**" أيّ أن يهتموا بالأمور الجسدية بالقدر اللازم، وليس أكثر مما يجب. بهذا نحرس الحياة الجسدية بالاهتمام بما هو خارجي، ولا يمنع ذلك الاهتمام بما هو للقلب، فالشعر على رأس الكاهن يبقى لكي يغطى الجلد ولكنه يقص بحيث لا يغطي العينين.

الفصل الثامن

يجب على الراعي ألا يهتم اهتمامًا زائدًا بإرضاء الناس، ولكن عليه أيضا أن يهتم بالأمور الواجبة لإرضائهم

لابد أن يحرص الراعي على ألا يكون مدفوعًا بالرغبة في إرضاء الناس، حتى لا يهتم بكسب حب رعاياه أكثر من اهتمامه بالحق، ولئلا يجعل حبه لنفسه غريبًا عن خالقه بسبب اعتماده على أعماله الحسنة وإعطائه لنفسه مظهر الغريب عن العالم.

والشخص الذي يهدف بأعماله الطيبة إلى كسب حب الكنيسة (المؤمنين) أكثر من حب الله، هو عدو لمخلصه. والخادم الذي يرسله العريس بهدايا لعروسه يخطئ بفكره إذا ابتغى أن يجد مسرة في عيني العروس. وعندما يتملك حب النفس من ذهن الراعي فإن هذا يدفعه إلى التراخي والتساهل الزائدين أو إلى الخشونة والقسوة.

فمحبة الراعي لنفسه قد تدفعه إلى التراخي والتساهل إذا رأى من يخطئون ولم يجرؤ على إصلاحهم، لأنه يخشى أن يضعف حبهم له كثيرًا مما يجعله يتغاضى عن خطاياهم ويتملقهم، بدلاً من أن يوبخهم عليها. ولذلك قال النبي: "**ويل للواتي يخطن وسائد لكل أوصال الأيدي، ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس.**" (حز ١٣: ١٨). إن وضع الوسائد تحت أوصال الأيدي هو مدح وتملق للنفوس التي ابتعدت عن الاستقامة، وانغمست في ملذات العالم، والشخص الذي لا يُوجه إليه اللوم والتوبيخ العنيف عندما يخطئ بل يُكال له المديح يكون كمن وضعت له وسائد تحت مرفقيه أو رأسه حتى يستريح في وضعه الخاطئ حيث لا يقلقه أي توبيخٍ قاسٍ.

ويُظهر الرعاة هذا التساهل نحو الأشخاص الذين في مقدورهم أن يمنعوهم من الحصول على المجد العالمي. ولكنهم يوبخون بشدة وتعنت الأشخاص الذين ليس في مقدورهم أن يفعلوا بهم شيئًا. وهم لا يوبخونهم بلطف أبدًا، بل ينسون التواضع الرعوي ويوقعوا الرعب في قلوبهم بحسب سلطانهم كرعاة. إن الكلمة الإلهية تدين أمثال هؤلاء الرعاة على لسان النبي القائل: "**بل بشدة وعنف تسلطتم عليهم**" (حز ٣٤: ٤). هؤلاء يحبون أنفسهم أكثر من خالقهم، ويتباهون وهم يتخذون الإجراءات ضد رعاياهم. إنهم لا يفكرون فيما يجب أن يفعلوه، لكنهم يفكرون فقط في القوة التي يملكونها، ولا يخافون من الدينونة المقبلة، إنما يفخرون بقوتهم الزمنية، وبأن لهم الحرية بأن يتصرفوا تصرفات خاطئة وبدون أية معارضة من الرعية.

والشخص الذي يتصرف تصرفًا شريرًا ويرغب في أن يُسكت الآخرين عنه هو شاهد على نفسه، لأنه يرغب في أن يحبه الآخرون أكثر مما هو حق. هذا هو الحق الذي لا يريد الدفاع عنه ضد نفسه. وبالطبع ليس هناك من يعيش بلا خطية. وأما الشخص الذي يحب ألا يخشاه الآخرون في الحق يحب الحق أكثر من نفسه، **ولهذا قبل بطرس بسرور توبيخ بولس** (غل ٢: ١١). **وأصغى داود بقبول لتوبيخ أحد أفراد الرعية** (٢ مل ١٢: ٧)، لأن الرعاة الصالحين الذين لا يهتمون بحب الذات يدركون أن الكلمات الحرة الصادقة التي تصدر عن الرعية تزيد من تواضعهم. ولكن في هذه الناحية يجب أن يؤخذ منصب الرعاية بكثير من الاعتدال، بحيث لا يؤدى إعطاء الرعية الحرية في التعبير عن آرائها في بعض الأمور إلى أصابتها بالغرور، فإنها إذا منحت حرية الكلام أكثر من اللازم فقدت تواضعها.

ينبغي أيضًا أن نلاحظ أن الرعاة المهرة يجب أن يحرصوا على إرضاء الناس، ولكن لكي يجذبوا الرعية

إلى محبة الحق بالتقدير الذي تكنه للراعي. وفي هذه الحالة لا يبتغي الرعاة أن يكونوا محبوبين لأنفسهم، ولكنهم يرغبون في أن يكون هذا الحب طريقًا يؤدي بقلوب السامعين إلى محبة الخالق. فمن الصعب على إنسان غير محبوبٍ، مهما كان تعليمه جيدًا، أن يستجيب له السامعون. لهذا يجب أن يهدف كل راعٍ إلى أن يكون محبوبًا لكي يستمع الناس إليه. وليس لكي يحبونه لشخصه، لئلا يتمرد فكره على الإله الذي يخدمه برتبته.

ويشير بولس الرسول إلى ذلك عندما يوضح لنا أسرار جهاده، قائلاً: "**كما أنا أيضًا أرضى الجميع في كل شيء**". (١ كو ١٠: ٣٣). ثم يقول أيضًا: "**فلو كنت بعد أرضى الناس، لم أكن عبدًا للمسيح.**"(غل ١: ١٠) وهكذا يرضى بولس الرسول الناس ولا يرضيهم. لأنه في رغبته إعطاء المسرة فإنه لا يسعى لإرضاء الناس، بل من خلاله يهب الحق الإلهي الناس مسرة.

الفصل التاسع

يجب أن يدرك الراعي أن الرذائل غالبًا ما تتخفي في ثياب الفضائل

يجب أن يفهم الراعي أن الرذائل عادة ما ترتدي أقنعة الفضيلة. فعلى سبيل المثال غالبًا ما يسمي البخيل نفسه مدبرًا. بينما يخفي المبذر حقيقة نفسه، ويقول أنه سخي اليد. وأحيانا يعتبر التساهل الزائد وقلة الحزم رحمة ومحبة، وينظر الناس للغضب المتهور على أنه غيرة روحية، وكثيرًا ما يعتبر التسرع والتهور نشاطًا وهمة نافعين، ويعتبر التباطؤ والتكاسل نوعًا من التمهل الرزين.

ولهذا ينبغي على راعى النفوس أن يميز بحكمة وعناية ما بين الفضائل والرذائل، لئلا يتمكن البخل من قلبه، وهو يبالغ في الظهور بمظهر المدبر، أو يفخر بكرمه كما لو كان فضيلة وهو في الحقيقة مبذر ومتلف. أو يتغاضى عما يجب أن ينتقده بشدة، فيجلب على رعيته العقاب الأبدي، أو يعاقب الأخطاء بدون رحمة، فيخطئ بذلك خطأ أكبر، أو عندما يفسد ما كان يمكن أن يفعله بوقار واستقامة بتوقعاته المتعجلة والطائشة. كذلك فإن تأجيل عمل ما صالح قد يحوله إلى عملٍ شريرٍ.

الفصل العاشر

الحكمة المطلوبة من الراعي عند استخدام التصويب والتغاضي والشدة واللطف

ينبغي أن نلاحظ أيضًا أنه في بعض الأحيان يجب التغاضي بحكمة عن أخطاء الرعية ولكن مع إشعارهم بهذا التغاضي. ففي بعض الأحيان يحسن التغاضي عن بعض الأخطاء ولو كانت معروفة للجميع، ولكن في أحيان أخرى يجب أن يستعمل التدقيق الشديد حتى ولو كانت الأخطاء خفية وبحسب الحالة يجب أن يتصرف الراعي سواء بالعتاب اللطيف أو بالعقاب الشديد.

وكما قلت سابقا فإن بعض الأشياء يجب التغاضي عنها بحكمة. ولكن هذا التغاضي يجب أن يتلازم مع شعور الخاطئ بأن أمره قد أُكتشف وتم غض النظر عن خطئه حتى يخجل من التمادي في أخطائه التي يعرف أنه قد تم التغاضي عنها في صمتٍ. وقد يعاقب نفسه بأن يصبح قاضيًا لنفسه إذا سامحه الراعي برحمة. بهذا التسامح وبخ الرب الأمة اليهودية، عندما قال على لسان النبي: "**وممن خشيتِ وخفتِ حتى خنت، وإياي لم تذكري، ولا وضعتِ في قلبك؟ أما أنا ساكت**". (إش ٥٧: ١١) لقد تغاضى الرب عن أخطائها، وجعلها تعرف أنه قد فعل ذلك. لم يقل الرب شيئًا ضد المخطئ، ومع ذلك أعلن أنه قد تسامح، فإن بعض الأشياء حتى ولو كانت معروفة علانية، يجب التغاضي عنها بحكمة عندما لا تكون الفرصة مناسبة للتوبيخ العلني. **إن العلاج في غير الوقت المناسب يجعل الجروح أكثر إيلامًا**. وإذا كانت الأدوية غير مناسبة فمن المؤكد أنها لا تصلح لغرض الشفاء.

يُختبر صبر الراعي في تحمل أخطاء الرعية أثناء بحثه عن فرصة لإصلاحهم. ولهذا قال صاحب المزامير: "**على ظهري حرث الحرَّاث**". (مز ١٢٩: ٣) لأننا نحمل الأثقال على ظهورنا. وهكذا يشكو داود من أن الخطاة قد أثقلوا ظهره وكأنه يريد أن يقول أن "أولئك الذين لا أستطيع إصلاحهم، أحملهم كحمل ثقيل". ومع ذلك فإن هناك بعض الأمور السرية التي يجب البحث فيها بتدقيق، فإذا ظهرت بعض الأعراض أمكن للراعي أن يكتشف كل ما يُعمل داخل عقول الرعية، وبالتوبيخ في الوقت المناسب يمكنه أن يستخلص من الأشياء غير المهمة أشياء مهمة. ولهذا قيل لحزقيال: "**يا ابن آدم، أنقب في الحائط**". ويضيف نفس النبي: "**فنقبت في الحائط، فإذا باب. وقال لي: "ادخل وأنظر الرجاسات الشريرة التي هم عاملوها هنا. فدخلت ونظرت، وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس وكل أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط**". (حز ٨: ٨-١٠)

يرمز حزقيال إلى أصحاب السلطة ويرمز الحائط إلى عصيان الرعية، والنقب في الحائط هو الكشف عن قسوة القلب بالملاحقة الدائمة. وعندما نقب حزقيال الحائط وجد بابًا. هذا يرمز إلى أنه عندما تتكشف قسوة القلب بالملاحقة المدققة أو التوبيخ الحكيم يظهر باب فيُرى من خلاله كل الأفكار الداخلية. ويتبع ذلك هذه الكلمات المناسبة: "**ادخل وانظر الرجاسات الشريرة التي هم عاملوها هنا.**" فهو يدخل ليرى الرجاسات. وكذلك عندما يرى الراعي الأعراض الخارجية فإنه ينفذ عن طريقها إلى قلوب رعيته لتتكشف له كل الأفكار الشريرة الموجودة بها.

ولهذا أضاف النبي قائلاً: "**قد دخلت ونظرت، وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس**". والدبابات هنا ترمز تمامًا إلى الأفكار الأرضية، بينما يرمز الحيوان إلى الأفكار التي تسمو عن الأرض قليلاً ولكنها لازالت تنتظر

الجزاء الأرضي، لأن أجسام الزواحف تلتصق تمامًا بالأرض، بينما ترتفع أجسام الحيوانات عن الأرض إلى حدٍ كبير ولكنها مرتبطة بشهواتها الجشعة. وهكذا تتواجد الدبابات داخل الحائط إذا كانت في الذهن أفكار لا تسمو أبدًا على الرغبات الأرضية.

أما وجود الحيوانات داخل الحائط فيحدث عندما توجد أفكار صالحة، ولكنها تضعف أمام الرغبة في المكاسب والأمجاد الأرضية. وبالرغم من أن هذه الأفكار تسمو عن الأرض، إلا أنها تهبط بنفسها إلى الحضيض بسبب سعيها لإرضاء الشهوات الجشعة. ولهذا أضيف ما هو ملائم: "**وكل أصنام بيت إسرائيل، مرسومه على الحائط**" لأنه مكتوب...."**الطمع الذي هو عبادة الأوثان**". (كو ٣: ٥) لهذا أُضيفت الأصنام بعد الحيوانات، لأن البعض يبتعد بذاته عن الأرض بأعمالهم الصالحة، ولكنهم يهبطون بأنفسهم إلى الأرض بسبب طموحهم الشرير. وحسنًا قيل أنها مرسومة على الحائط، لأن هذا يشبه ما يحدث عندما تدخل الأشياء العالمية إلى العقل فتنطبع الخيالات التي تدور في ذهن الإنسان وعلى قلبه كرسومٍ. من هذا نلاحظ أنه في بادئ الأمر يظهر ثقب في الحائط، ثم باب، وعندئذ فقط تتكشف النجاسات الخفية. لأن علامات كل خطية تظهر أولاً في الخارج، ثم بعد ذلك يظهر الباب الذي تخرج منه الخطية، وفي النهاية يظهر كل إثم بالداخل علانية.

هناك بعض الأشياء التي يجب أن تُوبخ بلطفٍ. فمثلاً إذا ارتكبت الخطية ليس عن عمدٍ، ولكن عن ضعفٍ أو جهلٍ، هنا يجب أن يؤنب المخطئ، ولكن في رقةٍ عظيمةٍ. لأننا جميعًا عرضة لضعفات طبيعتنا الفاسدة طالما نحن في هذا الجسد الفاني. لهذا يجب أن يدرك كل إنسان من ضعفاته الشخصية كيف ينبغي أن يكون مشفقًا بالآخرين. لأنه عندما نندفع بشدة إلى توبيخ الآخرين بسبب ضعفاتهم، فإننا ننسى حالة ضعفنا. ولهذا يقول معلمنا بولس: "**إن إنسبق إنسان فأُخذ في زلةٍ ما، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظرًا إلى نفسك لئلا تُجرب أنت أيضًا**". (غل ٦: ١) بهذه الكلمات يريد بولس أن يقول أنه عندما نغضب من خطية الآخرين، يجب أن ننظر إلى أنفسنا فنرق في التوبيخ لئلا يحدث لنا ما حدث لهذه النفس.

إلا أن هناك أشياء ينبغي أن تُوبخ بصرامة، فإذا لم يعترف إنسان ما بما فعل من إثم، فإن التوبيخ يذكره بجسامة فعله. أما إذا حاول بالرياء إخفاء إثمه، فإنه لا يلمس خطورة خطيته إلا بمقدار قسوة التوبيخ. وبالتأكيد فإن على الراعي أن يكشف عن أمجاد الوطن السماوي بالوعظ والتعليم، وأن يظهر كم هي خطيرة تلك التجارب التي لعدونا القديم، والتي تحيط بنا في رحلة هذا العالم، وأن يصلح من اعوجاج الرعية بتأنيب وغيرة شديدين، حيث هنا لا يجدي العطف، وحتى لا يتحمل الراعي كل الذنب إذا هو لم يغضب للإثم.

وهكذا قيل لحزقيال: "**وأنت يا ابن آدم، فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك، وارسم عليها مدينة أورشليم.**" ثم أضاف قائلاً: "**واجعل عليها حصارًا، وابنِ عليها برجًا، وأقم عليها مترسة، وأجعل عليها جيوشًا، وأقم عليها مجانق حولها**". وأضاف الرب واضعًا متراسًا لحزقيال "**وخذ أنت لنفسك صاجًا من حديد، وانصبه سورًا من حديد بينك وبين المدينة**". (حز ٤: ١-٣)

أليس حزقيال مثالاً للمعلم، لذلك يقول له الرب: "**خذ لنفسك لبنة وضعها أمامك، وأرسم عليها مدينة أورشليم**". ويضع المعلمون الصالحون لبنة أمامهم عندما يتعهدون قلوب السامعين الأرضية ويشددون عليها الحراسة بتكريسٍ عظيمٍ. وهكذا أمرهم الرب أيضًا أن يرسموا عليها خارطة مدينة أورشليم. أيّ أنهم يسعون بجهدٍ عن طريق التعليم أن يكشفوا رؤيا السلام الفائق للقلوب الدنيوية. ولكن حيث أننا لا نستطيع إدراك أمجاد الوطن السماوي دون أن نتدرب على مواجهة تجارب عدونا الماكر الشديدة، فقد أضاف الرب بالحق قائلاً: "**واجعل عليها حصارًا، وابنِ عليها برجًا،**" وهكذا يضع الرعاة الصالحون سياجًا حول اللبنة التي رُسم عليها صورة أورشليم المدينة، عندما يحصنون القلوب العالمية والتي تسعى وتشتاق إلى المدينة السمائية ويكشفون لها عن مدى قسوة

هجوم آثام هذه الحياة المعادية لهم، وكيف أن كل خطية تضرب حصارًا حول المتقدمين في النعمة. هذا وكأن التعليم هو الذي يقيم أسوار أورشليم.

ولأنه ينبغي أن نعرف أنه لا يجب فقط أن نقاوم الخطية، بل أن ننمي الفضيلة التي تمنحنا القوة، أضاف الرب قائلاً: "**ابنِ عليها برجًا**"، وهكذا يبني الرعاة الصالحون أبراجًا عندما يبرزون الفضائل التي نقاوم بها الرذائل. **وحيث تنمو الفضيلة وتقوى، هكذا تندلع عادة حرب التجارب وتزيد،** لذلك أضاف الرب بحق قائلاً: "**وأقم عليها مترسة، وأجعل عليها جيوشًا، وأقم عليها مجانق حولها**". والترس تُقام بالحديث عن كنل التجارب المتلاحقة، وكما أنه يجعل جيوشًا عليها عندما يحذر السامعين من شِبَاكْ العدو الماكر، فإنه يقيم المجانق عندما يعرف الراعي شعبه بأخطار التجارب المحيطة به في هذه الحياة والتي تخترق حواجز الفضيلة.

ولكن بالرغم من توضيح الراعي الدقيق لهذه الأمور فإن هذا لا يرفع من عليه المسئولية الأبدية إذا لم تتحرك روحه في حموة الغيرة وشدتها لمواجهة تراخي كل فرد. لذلك أضاف الرب بالحق: "**وخذ أنت لنفسك صاجًا من حديد، وانصبه سورًا من حديد بينك وبين المدينة**". فالصاج هنا يرمز لحمو العقل، ويرمز الحديد لعنف التأنيب، إذ لا شيء يشغل عقل المعلم ويؤلمه أكثر من غيرة الله المشتعلة وهكذا اكتوى بولس بالصاج المشتعل فقال: "**من يضعف وأنا لا أضعف؟ من يعثر وأنا لا ألتهب؟**" (٢ كو ١١: ٢٩). هذه الغيرة الملتهبة لله تقوى الإنسان وتحصنه، وتبعد عنه تهمة الإهمال. ولذلك قيل حقًا: "**وانصبه سورًا من حديد بينك وبين المدينة**".

لكن علينا أن نذكر أنه من الصعب على الراعي في مثل هذه الأمور أن يتجنب بعض ألفاظ التوبيخ التي كان ينبغي أن يتحاشاها إذ يحدث عادة أن يتطرف المعلم في توبيخه عندما يريد أن يصلح من خطأ أحد الرعية. فيطرح بذلك قلوب الخطاة في هوة اليأس. لذلك فإنه من الضروري على الراعي الذي يحنق على رعيته أن يستغفر الله في ندم، **لأنه أحزن قلب رعيته أكثر مما يجب، فأخطأ عندما أفرط في غيرته.**

هكذا قال الرب لموسى: "**ومن ذهب مع صاحبه في الوعر ليحتطب حطبًا، فاندفعت يده بالفأس ليقطع الحطب، وأفلت الحديد من الخشب، وأصاب صاحبه فمات، فهو يهرب إلى إحدى تلك المدن فيحيا. لئلا يسعى وليّ الدم وراء القاتل حين يحمى قلبه، ويدركه إذا طال الطريق ويقتله، وليس عليه حكم الموت، لأنه غير مبغضٍ**". (تث ١٩: ٥-٦) والراعي يذهب في الوعر مع صاحبه ليحتطب، وبذلك ينتبه إلى أخطائه وهو يقطع الحطب عندما يخلص صاحبه من الخطية في حبٍ ورعايةٍ. ولكن إذا أفلت الحديد من الخشب، فإن التوبيخ يكون قد زاد عن حده، وهكذا ينحدر إلى القسوة. أما إن أصاب الحديد صاحبه فمات، يكون الراعي قد قتل روح المحبة في رعيته بكلام السباب. وهكذا تحل الكراهية في قلوب الرعية، إذا اشتد عليها التوبيخ.

وإذا أفلت الحديد من الخشب وأصاب صاحبه فمات، فينبغي أن يهرب إلى المدن الثلاث حتى يحتمي في واحدة منها. لأنه إن حزن بندمٍ واحتمى بالرجاء والمحبة في وحدة الأسرار فإنه لا يُحتسب مذنبًا. حتى ولى الدم لا يجب أن يقتله لأنه عندما يأتي الديان العادل، والذي جعل نفسه واحدًا معنا وشارك طبيعتنا، فانه لا يرضى أن يأخذ أحدًا بذنبٍ إذا هو احتمي في **الإيمان والرجاء والمحبة** في ستر الغفران.

الفصل الحادي عشر

انسكاب الراعي على التأمل في الناموس المقدس

نعم إن هذا كله يتحقق إذا كان للراعي روح الخوف المقدس والحب، إذ بهما يتأمل كل يوم في الكلمات المقدسة. إن كلمات الوحي الإلهي تعيد إليه الإحساس بالمسئولية والتمييز بالنسبة لحياة السماء التي كثيرًا ما يهدمها طول فترة الاختلاط بالناس.

إن من يختلط بالعالم لسنين طويلة يلزمه أن يجدد على الدوام حبه للوطن السماوي. حقًا إن النفس تنحدر كثيرًا في وسط مشاغل العالم، وبما أنه من الواضح أنها تنحدر إلى الهلاك في دوامة المشاغل الخارجية، لهذا ينبغي أن يكون هدف النفس على الدوام هو السعي وراء إتمام الوصايا. هكذا يوصى بولس تلميذه الذي تسلم الرعاية، قائلاً له: "**إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتعليم**". (١ تي ٤: ١٣) وكذلك يقول داود: "**كم أحببت شريعتك، اليوم كله هي لهجي**". (مز ١١٩: ٩٧) ولأجل هذا أمر الرب موسى بخصوص حمل التابوت: "**وتسبك له أربع حلقات من ذهب، وتجعلها على قوائمه الأربع....وتصنع عصوين من خشب السنط، وتغشيهما بذهب. وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليُحمل التابوت بهما. تبقى العصوان في حلقات التابوت، لا تُنزعان منها**". (خر ٢٥: ١٢-١٥)

التابوت هو رمز الكنيسة المقدسة، وقد صارت الوصية إلى موسى أن يسبك له أربع حلقات على قوائمه الأربع، لأنه من الواضح أن هذه تشير إلى أربع جهات العالم التي انتشرت فيها الأربع أناجيل. أما العصوان من الخشب السنط اللذان يُثبتان في الحلقات، فهما الرعاة الساهرين الذين ينكبون على وصايا الكتب المقدسة، ويلتصقون بها على الدوام، معلنين وحدانية الكنيسة المقدسة، وكأنهم يحملون التابوت بدخولهم في الحلقات. ومعنى حمل التابوت بخشب السنط هو أن نجعل الكنيسة المقدسة تدخل بتعاليمها إلى عقول المؤمنين. ولأن الخشب تغطيه رقائق الذهب، فإن التعاليم تنير طريقنا في هذا العالم ولذلك أضاف الرب قائلاً: "**تبقى العصوان في حلقات التابوت، لا تنزعان منها**". إن الذين يتعهدون خدمة الرعاية عليهم ألا يفارق سفر الشريعة فمهم. وقد أمر الرب موسى أن لا تُنزع منها العصوان حتى لا يضيع الوقت عند حمل التابوت عند الضرورة. وعندما تسأل الرعية الراعي في أمرٍ روحي يلزمه ألا يتأخر في الإرشاد. لتبقى العصوان دائمًا في الحلقات، ليتأمل الرعاة على الدوام في الكتب المقدسة حتى يرفعوا سريعًا تابوت العهد الجديد ليقوموا عند الضرورة بالتعليم. لذلك قال بطرس الرسول: "**بل قدسوا الرب الإله في قلوبكم، مستعدين دائمًا لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم، بوادعةٍ وخوفٍ**" (١ بط ٣: ١٥). وكأنه يريد أن يقول: "أن تبقى العصوان في الحلقات لا تُنزعان منها".